جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

ثُنَائِيَّةُ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي

إعداد
غريب محمد أحمد عيسى

إشراف
د. عبد الخالق عيسى

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2017م

ثُنَائِيَّةُ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي

إعداد

غريب محمد أحمد عيسى

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2017/11/12م، وأُجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1- د. عبد الخالق عيسى/ مشرفاً رئيساً	.....
2- أ. د. علي عمرو/ ممتحناً خارجياً	.....
3- د. رائد عبد الرحيم / ممتحناً داخلياً	.....

الإهداء

إلى قدوتي الأولى، ونبراسي الذي ينير دربي، إلى من أعطاني ولم يزل يعطيني بلا حدود، أبي العزيز.

إلى القلب النابض، إلى رمز الحنان والحب والتضحية، إلى من كانت دعواتها الصادقة سر نجاحي، أمي الغالية، أدامها الله ذخرا لي.

إلى الجواهر المضيئة، والدرر المصونة، واللآلئ المكنونة، إخوتي الغاليين.

أهدي لهم جميعا هذا الجهد سائلا المولى أن يوفقنا لما يحب ويرضى.

شكر وتقدير

الشّكر لله عزّ وجل أولا، وإلى كلّ من ساعدني في إخراج هذا البحث، وأخصّ بالشّكر أستاذي الدّكتور عبد الخالق عيسى، على ما قدّمه من علم نافع، منذ دراسة البكالوريوس، وانتهاءً بالإشراف على بحثي هذا، ولم يبخل عليّ بالنّصح والإرشاد والتّوجيه والتّقويم والتّصويب؛ حتّى يستقيم هذا البحث، ولا أملك إلا أنْ أسأل الله تعالى أنْ يجعل هذا العمل الصّالح في ميزان حسناته.

كما أتقدّم بجزيل الشّكر وعظيم الامتنان، إلى عضوي لجنة المناقشة، الأستاذين الفاضلين: الأستاذ الدكتور علي عمرو، والدكتور رائد عبد الرحيم، اللذين تفضلا عليّ بجزء من وقتهما؛ للإطلاع على بحثي، ومن ثمّ مناقشته؛ حتّى أفيد من ملاحظاتهما القيّمة، سائلا الله تعالى أنْ يجزيهم عنّي خير الجزاء.

كما أتقدّم بالشّكر الجزيل، إلى كلّ من تجشّم معي أعباء هذه الدراسة، وأسهم معي في تلبية متطلباتها، وكلّ من له يد في إظهار هذا العمل، وأخصّ بالذكر أخي العزيز رياض عيسى.

الإقرار

أنا الموقع أدناه، مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

ثُنَائِيَّةُ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحث لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name: **اسم الطالب:** غريب محمد أحمد عيسى

Signature: **التوقيع:**

Date: **التاريخ:** 2017/11/12م

فَهرَسُ المُحْتَوَياتِ

المَوضُوعُ	الصَّفْحَةُ
الإِهْداءُ	ت
الشُّكْرُ وَالتَّقْديرُ	ث
إِقْرارٌ	ج
فَهرَسُ المُحْتَوياتِ	ح
المُلَخَّصُ	د
المُقَدِّمَةُ	1
التَّمْهيدُ	3
الفَصْلُ الأَوَّلُ: مَفْهُومُ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي.	11
المَبْحَثُ الأَوَّلُ: مَوقِفُ الشّاعِرِ مِنَ الحَياةِ.	12
أَوَّلًا: ذَمُّ الحَياةِ.	13
ثانِيًا: حُبُّ الحَياةِ.	20
1. التَّشَبُّثُ بالحَياةِ.	20
2. الشَّبابُ.	22
3. المَرْأَةُ.	25
المَبْحَثُ الثَّاني: مَوقِفُ الشّاعِرِ مِنَ المَوتِ.	28
أَوَّلًا: المُعْتَقَدُ المَذهَبِيُّ عِنْدَ الشّاعِرِ.	28
ثَانِيًا: حَتْمِيَّةُ المَوتِ وَشُمُولِيَّتهُ.	35
ثَالِثًا: المَوتُ دَعْوَةٌ إِلَى الفُروسِيَّةِ.	42
رَابِعًا: الحُبُّ والمَوتُ.	53
الفَصْلُ الثَّانِي: مَلَامِحُ المَوتِ في شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي	61
المَبْحَثُ الأَوَّلُ: الشَّيْبُ.	62
المَبْحَثُ الثَّانِي: الزَّمانُ.	71
أولاً: فَاعِلِيَّةُ الزَّمانِ.	72
1- الزَّمانُ الظَّالِمُ.	72
2- الزَّمانُ مُفَرِّقُ الأَحِبَّةِ.	75
3- الزَّمانُ المُخادِعُ.	77

4- الزَّمَانُ المُهْلِكُ.	79
ثانياً: مُجابَهَةُ الزَّمانِ.	82
المُبْحَثُ الثَّالِثُ: الفِراقُ.	86
الخاتِمَةُ.	98
قائمة المَصادِرِ وَالمَراجِعِ.	100
Abstract	B

ثُنَائِيَّةُ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي

إعداد

غريب محمد أحمد عيسى

إشراف

د. عبد الخالق عيسى

الملخص

وَقَفَتْ هَذِهِ الدِّراسَةُ عَلى ثُنائِيّةِ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبي الطَّيّبِ المُتَنَبّي، وَتَناوَلَتْها بالجَمْعِ والتَّحْلِيْلِ؛ فَقَدْ أَسْهَبَ المُتَنَبّي في تَناوُلِ هَذِهِ الثُّنائِيّةِ في شِعْرِهِ، وسَبْرِ أَغْوارِها، وَأَخَذَ يُفَلْسِفُها بِما يَتَوافَقُ ومَنْطِقَهُ، وما يَنْسَجِمُ مَعَ ذاتِهِ الثّائِرَةِ الطّامِحَةِ.

وَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الدِّراسَةُ عَلى: مُقَدِّمَةٍ، وتَمْهيدٍ، وفَصلين، وخاتِمة، أَمَّا المُقَدِّمَةُ، فَقَد تَناوَلَت مَوضوعَ البَحْثِ، وَمَنْهَجَ الدِّراسَةِ ومُحْتَوَياتِها، وَسَبَبَ اخْتِيارِ المَوضُوعِ، وَأَهَمَّ المَصادِرِ وَالمَراجِعِ الَّتي اسْتَنَدَ إِلَيْها الباحِثُ، وَيُلَخِّصُ التَّمْهيدُ عَرْضًا مُوجَزًا حَولَ مَوضُوعِ الحَياةِ والمَوتِ في عُصُورٍ مُخْتَلِفَةٍ يَبْدَؤُها بِالمُعْتَقَداتِ القَديمَةِ وُصولًا إِلى العَصْرِ العَبّاسِيِّ.

وَتَحَدَّثَتِ الدِّراسَةُ في الفَصْلِ الأَوَّلِ عن مَفْهومِ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي، وَمَوقِفِهِ مِنْهُما، وَبَيَّنَتْ نَظْرَتَهُ فيهِما بالوُقوفِ عَلى عَناوينَ مُتَنَوِّعَةٍ اتَّصَلَتْ بِالحَياةِ والموتِ في شِعْرِهِ.

وَتَطَرَّقَتْ في الفَصلِ الثَّاني إِلى مَلامِحِ الموتِ في شِعْرِهِ، اعتِمادًا عَلى الحَديثِ عَنِ الشَّيْبِ، والزَّمانِ، والفِرَاقِ، وَبَيَّنَتْ أَثَرَ هَذِهِ المَلامِحِ وَانْعِكاسَهَا عَلى نَفْسِيَّةِ الشّاعِرِ.

وَانْتَهَتِ الدِّراسَةُ بِخاتِمَةٍ تَضَمَّنَتْ أَهَمَّ النَّتائِجِ الَّتي تَوَصَّلتُ إِلَيها في هَذا البَحْثِ.

المُقَدّمَةُ

الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمينَ، خالِقِ اللَوْحِ والقَلَمِ، وخالِقِ الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ، وَمُدَبِّرِ الأَرْزاقِ والآجالِ بِالمَقاديرِ والحِكَمِ، أَمّا بَعد:

فالحَياةُ والمَوتُ لُغْزانِ مُتَناقِضانِ حَيَّرا البَشَرِيَّةَ مُنْذُ القِدَمِ، وكانا مَصْدَرَ قَلَقِها الدّائِمِ، وأَرَقِها المُزْمِنِ، ولِهَذا كَثُرَتِ الأَساطيرُ الَّتي تُحاوِلُ قَهْرَ المَوتِ؛ بِإِعْطاءِ البَشَرِ صِفاتِ الآلِهة؛ لِتُكْسِبَهُم شَيْئًا مِنَ الخُلودِ، وهَذا كُلُّهُ باءَ بِالفَشَلِ.

وكَثُرَ الشُّعَراءُ الَّذينَ يَبْحَثونَ في أَسْرارِ الحَياةِ والمَوتِ، ويُمْعِنونَ في تَناوُلِ ما يَتَّصِلُ بِهِما. والمُتَنَبّي مِنْ أَبْرَزِ الشُّعَراءِ اهْتِمامًا بِهذينِ اللغْزَيْنِ، فَهُوَ فارِسٌ آمَنَ أَنَّ الحَياةَ ساحَةُ حَرْبٍ، العَلاقَةُ فيها بَيْنَ الإِنْسانِ وأَخيهِ الإِنْسانِ تُماثِلُ العلاقة بَيْنَ المُقاتِلِ والمُقاتِلِ، والغَلَبَةُ في نِهايَةِ الأَمْرِ لِلْأَقْوى. ولِأَنَّ المُتَنَبّي شاعِرٌ قَلِقٌ تَعاوَرَ في نُصوصِهِ الأَمْرانِ، فَمِنْ رَغْبَةٍ جامِحَةٍ بِالحَياةِ الكَريمَةِ العَزيزَةِ، إِلى رَفْضٍ وإِقْصاءٍ لِلحَياةِ الذَّليلَةِ، ورَفْضٍ لِلْحَدِّ الأَدْنى مِنْ أَسْبابِ الحَياةِ، رَغْبَةً في الوُصولِ إِلى المُطْلَقِ حَتى في مَديحِهِ لِغَيْرِهِ.

وعَلى الرَّغْمِ مِنْ وُجودِ دِراساتٍ تَطَرَّقَتْ إِلى مَوْضوعِ الحَياةِ والمَوتِ عِنْدَ المُتَنَبّي، إِلا أَنَّها كانَتْ جُزْئِيَّةً، مَوجُودَةً في بَعْضِ الدِّراساتِ الَّتي أَلَّفَ فيها الباحِثُونَ حَوْلَ المُتَنَبّي، وثَمَّةَ دِراسَةٌ تَتَشابَهُ مَعَ دِراسَتي، وهِيَ بِعِنْوان: تَجَلِّياتُ المَوْتِ في شِعْرِ المُتَنَبّي لِبَهاءِ بنِ نَوّارٍ، إِلا أَنَّ هذِهِ الدِّراسَةَ عَرَضَتْ مَوْضوعَ المَوْتِ دونَ الحَياةِ، واخْتَلَفَتْ مَنْهَجًا ومُحْتَوًى عَنْ دِراسَتي، وإِنْ أَفَدْتُ مِنْ بَعْضِ نُصوصِها، وبِناءً عَلى ذلِكَ، فَلا تُوجَدُ دِراسَةٌ وافِيَةٌ وشامِلَةٌ تَعَرَّضَتْ لِمَوْضوعِ الحَياةِ والمَوْتِ في شِعْرِهِ، ولِهذا جاءَتِ الدِّراسَةُ؛ لِتُسَلِّطَ الضوءَ عَلى ثُنائِيَّةِ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ المُتَنَبّي، وقَدْ جَعَلْتُها في مُقَدِّمَةٍ وتَمْهيدٍ، ومِنْ فَصْلَيْنِ وخاتِمَةٍ، ومِنْ ثَبْتٍ يَضُمُّ المَصادِرَ والمَراجِعَ الَّتي اتَّكَأْتُ عَلَيْها.

فَتَناوَلْتُ في الفَصْلِ الأَوَّلِ مَفْهومَ الحَياةِ والمَوتِ في شِعْرِ المُتَنَبّي، وعَرَضْتُ مَوْقِفَهُ مِنَ الحَياةِ، فتَحَدَّثْتُ عَنْ ذَمِّهِ لَها وَتَعَلُّقِهِ بِها، ووَقَفْتُ عَلى الدَّوافِعِ الَّتي جَعَلَتِ الشّاعِرَ مُتَعَلِّقًا بِالحَياةِ،

مُتَمَثِّلَةً في الشَّبابِ وَالمَرْأَةِ، كَوْنَها تُشَكِّلُ لَدَيْهِ عُنْصُرًا مِنْ عَناصِرِ الحَياةِ، وانْتَقَلْتُ إلى الحَديثِ عَنْ مَوْقِفِ الشّاعِرِ مِنَ المَوْتِ، فوَقَفْتُ عَلى المُعْتَقَدِ المَذهَبيِّ عِنْدَهُ، وتَحَدَّثْتُ عَنْ حَتْمِيَّةِ المَوتِ وَشُمولِيَّتِهِ في شِعْرِهِ، وبَيَّنْتُ حَديثَهُ عَنِ المَوتِ الّذي يَدْعو فيهِ إلى الفُروسِيَّةِ، وأَنْهَيْتُ الفَصْلَ في الحَديثِ عَنِ الحُبِّ والمَوْتِ لَدَيْهِ.

وأَمّا الفَصْلُ الثّاني، فخَصَّصْتُهُ للحَديثِ عَنْ مَلامِحِ المَوْتِ، وقَدْ قَسَّمْتُها في ثَلاثَةِ أَقْسامٍ، أَوَّلُها يَتَحَدَّثُ عَنِ الشَّيْبِ تارَةً بِوَصْفِهِ مَلْمَحًا مِنْ مَلامِحِ المَوْتِ، ورَجاحَةَ عَقْلٍ تارَةً أُخْرى، وثانيها يَتَناوَلُ الزَّمانَ، وقَدْ وَقَفْتُ فيهِ عَلى فاعِلِيَّتِهِ، ومِنْ ضِمْنِها الزَّمانُ الظّالِمُ، ومُفَرِّقُ الأَحِبَّةِ، والمُخادِعُ، والمُهْلِكُ، وبَيَّنْتُ فيهِ مُجابَهَةَ الشّاعِرِ إيّاهُ وتَحَدّيهِ لَهُ، ثُمَّ انْتَقَلْتُ إلى المَلْمَحِ الأَخيرِ وهُوَ الفِراقُ الَّذي شَكَّلَ مَظْهَرًا مِنْ مَظاهِرِ إِحْساسِهِ بِالفَناءِ.

وقَدْ بَنَيْتُ الدِّراسَةَ عَلى المَنْهَجِ التَّكامُلِيِّ، واسْتَعَنْتُ بِبَعْضِ الدِّراساتِ القَديمَةِ والحَديثَةِ، وجَعَلْتُ مِنْ شَرْحِ ديوانِ المُتَنَبّي لِعَبْدِ الرَّحْمنِ البَرْقوقِيِّ مَصْدَرًا أَساسِيًّا، وأَفَدْتُ إلى جانِبِهِ مِنْ مَصادِرَ قَديمَةٍ، أَهَمُّها: المُقابَساتُ لأَبي حَيّانِ التَّوْحيدِيِّ، والعِقْدُ الفَريدُ لِابنِ عَبْدِ رَبِّهِ، وخِزانَةُ الأَدَبِ وَلُبُّ لِبابِ لِسانِ العَرَبِ لِعَبْدِ القادِرِ البَغْدادِيِّ، ونُزْهَةُ الأَلْباءِ في طَبَقاتِ الأُدَباءِ لِأَبي البَرَكاتِ الأَنْبارِيِّ، وعُيونُ الأَخْبارِ لِابن قُتَيْبَةِ الدّينورِيِّ، والشِّهابُ في الشَّيْبِ والشَّبابِ لِلشَّريفِ المُرْتَضيّ، وَالمُسْتَطْرَفُ في كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظْرفٍ لِشِهابِ الدّينِ مُحَمَّدٍ الإِبْشيهِيّ.

وأَخَذْتُ مِنْ كُتُبِ المُحْدَثينَ، ومِنْها: مُطالَعاتٌ في الكُتُبِ والحَياةِ لِعَبّاس مَحْمودِ العَقّادِ، ومَعَ المُتَنَبّي لِطهَ حسين، والحِكْمَةُ في شِعْرِ المُتَنَبّي لِيُسْري مُحَمَّد سَلامَة، وفي عالَمِ المُتَنَبّي لِعَبْدِ العَزيزِ الدَّسوقِيِّ، والزَّمانُ وَالمَكانُ في شِعْرِ أَبي الطَّيِّبِ المُتَنَبّي لِحَيْدَر لازِم مطْلِكْ، والشِّعْرُ والزَّمَنُ لِجَلالِ الخَيّاطِ، وأَبو الطَّيِّبِ المُتَنَبّي حَياتُهُ وخُلْقُهُ وشِعْرُهُ وأُسْلوبُهُ لِمُحَمَّدِ كَمال حِلْمي.

وأَخيرًا أَسْأَلُ اللهَ العَلِيَّ القَديرَ أَنْ يَكونَ هذا العَمَلُ مُنْجَزًا لِوَجْهِهِ الكَريمِ، آمِلًا أَنْ يَكونَ قَدْ حَقَّقَ الأَهْدافَ المَرْجُوَّةَ، فَإِنْ كانَ ذلِكَ فَبِفَضْلِ اللهِ وحَمْدِهِ، وإِنْ أَخْطَأْتُ فحَسْبي أَنَّني حاوَلْتُ.

تمهيد

إنَّ "البقاءَ والفناءَ صنوان لا ينفصمان، ينسجان الوجود في مقابل العدم"[1]، فمنذ وعي الإنسان ألا سبيل إلى الخلود، وأنَّ الموت يحوم حوله، يتصيّده في أيّة لحظة، دأب على معرفة سرّ الموت؛ ليتّقيه، ويدفعه عنه، ولكنَّه سرعان ما أدرك أنَّ الفناء قدره المنتظر، "وعلى قدر انشغال الإنسان بقضية الخلود كان انشغاله بقضية الموت، وبقدر أرقه في الحصول على الأولى، كان تأريق الثانية له، والتفكير في الهروب منها"[2].

وعندما أيقن الإنسان ألا سبيل إلى الفرار من الموت، أخذ يفلسف نظرته تجاه الحياة والموت؛ لإرضاء غروره، واندفاعه نحو سدّ رمقه في هذه القضية، وقد حمل الإرث الإنساني القديم بقايا هذا الصراع بين الإنسان ونفسه في حصوله على الخلود وتغلّبه على الموت، ولعلّ أول إرث وصل إلينا معالجا هذه القضية ملحمة الرافدين الخالدة (ملحمة جلجامش).

وتناولت هذه الأسطورة الحياة والموت، وكان بطلها الرئيس جلجامش الذي بحث عن الخلود ونبتة الحياة، بعد موت صديقه أنكيدو، ولكنّ جلجامش يدرك أنَّ الموت قدرعلى كلّ إنسان:

إلى أين تسعى يا جلجامش

إن الحياة التي تبغي لن تجد

إذ لمَّا خلقت الآلهة البشر قدرت الموت على البشرية

واستأثرت هي بالحياة[3].

وفي ظلّ هذه الملحمة الأسطورية التي عكست تفكير الإنسان القديم في هذه القضية، يبدو أنَّه حاول النظر إلى قضية الموت موضحا رؤيته فيها، فأيقن أنْ لا خلود للبشر.

---

(1) الديك، إحسان: **الأسطورة في فكر الجاهلي وأدبه**، ط1، مجمع القاسمي للغة العربية، 2016، ص95.

(2) نفسه، ص95.

(3) باقر، طه: **ملحمة جلجامش . أوديسة العراق الخالدة**، د.ط، وزارة الإعلام، بغداد، 1975، ص79.

ولم تقتصر قضية الحياة والموت على الأساطير البابلية، فقد شملت عددا من الأساطير القديمة الأخرى؛ ما يدلّ على انشغال الإنسان بهذه القضية، وإعطائها قسطا وافرا من مخيلته ومعتقده، على الرغم من كونه متيقنا من حتميّة الموت وشموليته.

ويبدو أنَّ الإنسان العربي في العصر الجاهلي لم يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الإنسان القديم في نظرته للحياة والموت، فلم يكن العربي الجاهلي بمنأى عن تأثير الأساطير القديمة في نظرته للحياة والموت، وأراد أنْ يواسي نفسه، فحاكى أسطورة جلجامش بأسطورة لقمان ونسوره، وفحوى هذه الأسطورة: "أن كل شيء آيل إلى الثبور والهلاك، حتى عظام الطير وأطولها عمرا، فلا سبيل إلى تخليد الذات"[1].

وبهذا تعاقب الشّعراء على توظيف أسطورة لقمان في أشعارهم، ومن هؤلاء الشعراء: زهير بن أبي سلمى الذي أشار إلى هلاك لقمان بطل أسطورة الخلود[2]، يقول:

ألا لا أرى على الحَوادِثِ باقيا ولا خالداً إلا الجبالَ الرواسيا

ألم تَرَ أنَّ اللهَ أهلَكَ تُبَّعاً وأهلَكَ لقمانَ بنَ عادٍ وعادِيا[3]

وكذلك طرفة بن العبد الذي يقول:

فَكيفَ يُرجّي المرءُ دهراً مُخلَّداً وأعمالُهُ عَمّا قَلِيلٍ تُحَاسِبُه

ألم تَرَ لُقمانَ بنَ عادٍ تَتابَعتْ عليه النّسورُ ثمّ غابتْ كواكبه[4]

وكان حديثهم عن الموت دعوة صريحة إلى اقتحام الصِّعاب ونبذ المخاوف، فما دام الموت واقعا لا محالة فلا ينبغي الخوف منه، إلا أنّ بعض الشّعراء أخذ يضفي على هذه القضية من فلسفته الخاصة ما يليق بنفسيته ونظرته، فعنترة بن شداد يحاول استخراج معنى الحياة من

---

[1] الديك، إحسان: **الأسطورة في فكر الجاهلي وأدبه**، ص118.

[2] نفسه، ص115.

[3] ابن أبي سلمى، زهير: **الديوان**، تح: علي حسن فاعور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، ص141.

[4] ابن العبد، طرفة: **الديوان**، تح: مهدي محمد ناصر الدين، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002، ص11.

صميم الموت، "ففي غياهب الموت تكمن خميرة الحياة، وفي صميم الحياة تختبئ بذرة الموت"[1]، يقول:

لا تَسْقني ماءَ الحياةِ بذِلَّةٍ بلْ فاسْقني بالعزِّ كاس الحنْظل

ماءُ الحياةِ بذلَّةٍ كجَهنَّم وجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ منْزل[2]

فهو يأبى إلا أنْ يعيش عزيزا وإنْ كان عبدا، فالحياة بالذلّ مهانة، ويقدّر أنَّ الموت بحدِّ ذاته إنْ كان على عزَّة وشرف فهو حياة لصاحبه أكثر من كونه موتا.

ويؤكّد طرفة بن العبد حتميّة الموت والفناء، ولا يوجد من يستطيع دفع الموت عن نفسه، "وهذا يدفع إلى اغتنام غفلات الدّهر والمبادرة إلى التمتع بالحياة"[3]، وتجاهل أحداث الحياة وأحزانها، والتمتع بالمتاح منها مهما كان ضئيلا، فهذه الأيّام التي نحياها تضمحل يوما بعد يوم، فالحياة طوّقت الإنسان بحبل أوله في عنقه، وآخره في يد الموت، والموت قادر على شدّ الحبل في أيّ لحظة، وما هذه الرؤية إلا دليل للتمتع بكل ملذات الحياة وعدم الامتناع عنها، ما دام الخلود في هذه الحياة وهم سراب، يقول:

ألا أيُّهذا اللائمي أحضرَ الوغى وأن أشهدَ اللذّات، هل أنتَ مُخلِدي؟

فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيَّتي فَدعنِي أبَادِرهَا بِمَا مَلكتْ يَدي

أرَى العَيشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيلَةٍ وما تَنقُصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَدِ

لعمرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى لَكالطِّوَلِ المُرخى وثِنياهُ باليَدِ[4]

---

[1] الديك، إحسان: **صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي**، ط1، مجمع القاسمي للغة العربية، 2013، ص7.

[2] التبريزي، الخطيب: **شرح ديوان عنترة**، تح: نجيب طراد، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992، ص135.

[3] جياووك، مصطفى عبد اللطيف: **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**، د.ط، دار الحرية للطباعة، بغداد،1977، ص197.

[4] ابن العبد، طرفة: **الديوان**، ص25.26.

الطول: حبل طويل تُشد به قائمة الدابة، ينظر، ابن منظور: لسان العرب، مادة طول.

فالعمر والحياة كنز ينقص كل يوم، والموت إذا أغفل بعض الناس فطال عمرهم، لا يخرجون عن قدرته وسلطانه، والموت نهاية يرقبها الإنسان كلّ يوم، وهو كأس دائرة سينهل منها الجميع.

إنَّ نظرة الجاهلي إلى الموت نظرة تؤمن بحتميّة الموت مهما تعددت أفكاره ومعتقداته، فلا مناص للمرء في الهروب منه، فيبقى ملازما له، يلاحقه في حلِّه وترحاله، مهما طال عمره.

وبمجيء الإسلام وضحت الرؤية الشاملة للكون وأسراره، فارتقى العربي في تفكيره وتأملاته، ولم تعد قضية الموت تشكل له لغزا، ومع ذلك ظلَّ يشغله حبّ البقاء فيها، وقد أوضح الإسلام أنَّ الموت هو الخطوة الأخيرة في الحياة الدنيا، والخطوة الأولى في الحياة الآخرة، ووجد بعضهم منافذ للخلود في الحياة الآخرة، تكمن في التمسّك بالقيم الفاضلة في الحياة الدنيا، فضلا عن القيم الإسلامية التي حثّ الإسلام عليها.

ولم تبق فلسفة الموت عند شعراء عصر الإسلام كحالها عند أقرانهم في الجاهلية؛ فقد جاء الإسلام ليمنح الإنسان معادلة منطقية متوازنة، تمكّنه من مجابهة الموت وتحدياته، ويخرج من مفاهيمٍ كان يسعى لأجلها، "فأصبح الشّاعر المسلم يعرف أنَّ الموت مورد لا بدَّ منه، فسلّم الأمر للبارئ ورضي بالقدر خيره وشرّه، بل سلك أكثر من الرضا، إذ يعزّي نفسه ويضرب لها الأمثال بمن فات ومات"[1]. وبهذا يعبر عبد الله بن أنيس[2] حين قال:

فَلَوْ رَدَّ مَيِّتًا قَتْلُ نَفْسِي قَتَلْتُهَا وَلَكِنَّهُ لا يَدْفَعُ الْمَوْتَ دَافِعُ

وَلَكِنَّنِي بَاكٍ عَلَيْهِ وَمُتْبِعٌ مُصِيبَتَهُ إِنِّي إِلَى اللَّهِ رَاجِعُ

وَقَدْ قَبَضَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ قَبْلَهُ وَعَادٌ أُصِيبَتْ بِالرَّزَى وَالتَّبَابِعُ[3]

---

[1] الحامد، عبد الله عواد: **الشعر الإسلامي في صدر الإسلام**، ط1، الرياض، 1980، ص242.

[2] عبد الله بن أنيس أبو يحيى من بني وبرة من قضاعة، صحابي من القادة الشجعان، قاد بعض السرايا في العصر النبوي، توفي سنة 54هـ.

ينظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: **المحاضرات والمحاورات**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ، ص59.

[3] الحامد، عبد الله بن حامد: **شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين**، د.ط، الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية، الرياض، 1971، 1/ 397-398.

ومن هنا يظهر وعي الشّاعر المسلم بمدى قسوة الموت وأثره على النفس، غير أنَّ إيمانه بالله يجعله يغض الطرف عن هذا العذاب النابع من الموت، ويقبل على الله بإيمانه واعتقاده بالبعث يوم القيامة والمثول أمام الله، وقد آمن الشّعراء المسلمون أنّ الموت نقطة فاصلة تفصل بين حياتين، حياة الدنيا وحياة الآخرة، ومن هنا يبيّن علي بن أبي طالب ذلك، فيقول:

لا دارَ لِلمَرءِ بَعدَ المَوتِ يَسكُنُها إلاَّ الَّتي كانَ قَبلَ المَوتِ بانيها

فَإن بَناها بِخَيرٍ طابَ مَسكَنُها وَإن بَناها بَشَرٍّ خابَ بانيها[1]

ويظهر موقف كعب بن زهير إزاء الحياة والموت بوضوح، ويضفي للموت وجها آخر من فلسفته الخاصة، فالشَّاعر يؤمن بحتميّة الموت، إلا أنَّه جعل الشّيب معادلا موضوعيا للموت، لأنَّ الشّيب يقلق الإنسان ويقربه من دنو أجله، وما هو إلا علامة دالة على قرب نهاية صاحبه، لذلك جعل الشّيب وجها آخر للموت، فكلاهما يؤرِّق الإنسان، ويشغل تفكيره، ويبعث في نفسه هواجس قلق تلاحقه باستمرار، ويعبّر الشّاعر عن هذه الفكرة في قوله:

إنْ يُدركَ موتٌ أو مشيبٌ فقبلَك مات أقوامٌ وشابوا

تَلَبَّثْنا وفَرَّطْنا رِجالاً دُعُوا وإذا الأنامُ دُعُوا أجابوا

وإنَّ سبيلنا لسبيلُ قومٍ شَهِدْنا الأمرَ بعدَهُمُ وَغَابوا

فلا تَسأَلْ سَتَثْكَلُ كلُّ أُمٍّ إذا مَا إخوةٌ كَثروا وَطَابوا[2]

ويكشف حسان بن ثابت موقفه تجاه الحياة والموت، معتمدا على المعتقد الديني، فيبيِّن أنَّ المجاهد في سبيل الله لا يهاب الموت، ولا يتشبّث بالحياة الفانية؛ لأنَّ مصيره متعلّق بالآخرة، فالحياة الدنيا لا تخلّده، لكنّ الحياة الآخرة هي التي تبقيه مخلدا، فالشّهداء أحياء عند ربّهم يرزقون، يقول:

---

[1] ابن أبي طالب، علي: **الديوان**، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، د.ط، دار بن زيدون، بيروت، د.ت، ص150.

[2] ابن زهير، كعب: **الديوان**، تح: درويش الجويدي، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، 2008، ص25.

وَزَيدٌ وَعَبدُ اللَهِ حينَ تَتابَعوا جَميعاً وَأَسبابُ المَنِيَّةِ تَخطِرُ

غَداةَ غَدَوا بِالمُؤمِنينَ يَقودُهُم إِلى المَوتِ مَيمونُ النَقيبَةِ أَزهَرُ

أَغَرُّ كَلَونِ البَدرِ مِن آلِ هاشِمٍ أَبيٌّ إِذا سيمَ الظُّلامَةَ مِجسَرُ

فَطاعَنَ حَتّى ماتَ غَيرَ مُوَسَّدٍ بِمُعتَرَكٍ فيهِ القَنا يَتَكَسَّرُ

فَصارَ مَعَ المُستَشهِدينَ ثَوابُهُ جِنانٌ وَمُلتَفُّ الحَدائِقِ أَخضَرُ[1]

فالشّاعر أورد في مفرداته دلالات مقترنة بالحياة والموت، ومن مفردات الحياة (الزهر، والجنان، والحدائق، واللون الأخضر)، وأما مفردات الموت، فأهمّها (المنية، والمعترك، والطعن، والقنا)، إلا أنّ ألفاظ الموت تمازجت في ألفاظ الحياة، فأصبحت ألفاظ الحياة أقوى، وأدت إلى تلاشي ألفاظ الموت، فأضحت عنصرا من عناصر الحياة، ومن هذا المنطلق بيَّن الشّاعر مصير المؤمن من خلال انتقاله من عالم الموت إلى عالم ما وراء الموت، وهو الحياة الخالدة في الدار الآخرة.

ولم يقض الإسلام بتبشيره الإنسان بحياة أخرى على مخاوفه من الموت، فهناك حياة ثانية بعد الموت توصل صاحبها إلى هناء أو عذاب[2]، وقد أحسّ الإنسان في العصر الأموي –ولا سيما الشّاعر– بالخوف والأرق الصادر من الإحساس بالموت، ولا شك أنَّ الإحساس بالموت ما هو إلا صدى للإحساس بالحياة، فكلاهما مرتبط بالآخر، وقد صدق الله تعالى حين قال: ﴿**تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ**﴾[3]. فلا نهار بلا ليل، ولا ليل بلا نهار، ولا حياة بلا موت، ولا موت بلا حياة، يقول قطري بن الفجاءة[4]:

---

[1] الأنصاري، حسان بن ثابت: **الديوان**، تح: عبدأ مهنا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص108.

[2] ينظر: الزير، محمد بن حسن: **الحياة والموت في الشعر الأموي**، ط1، دار أمية للنشر والتوزيع، الرياض، 1989، ص14.

[3] سورة آل عمران، آية 27.

[4] من فرسان الخوارج قطري بن الفجاءة، ويكنى أبا نعامة، وخرج زمن مصعب بن الزبير لما كان مصعب واليا على العراق من قبل أخيه عبد الله بن الزبير سنة ست وثلاثين.

ينظر: علي، أبو إسحق برهان الدين محمد: **غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة**، تح: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008، ص409.

أَقولُ لَها وَقَد طَارَت شَعَاعاً مِنَ الأَبطالِ وَيحَكِ لَن تُراعي

فَإِنَّكِ لَو سَأَلتِ بَقاءَ يَومٍ عَلى الأَجَلِ الَّذي لَكِ لَم تُطَاعِي

فَصَبراً في مَجالِ المَوتِ صَبراً فَما نَيلُ الخُلودِ بِمُستَطاعِ

وَلا ثَوبُ البَقاءِ بِثَوبِ عِزٍّ فَيُطوَى عَن أَخِي الخَنعِ اليُراعِ

سَبيلُ المَوتِ غايَةُ كُلِّ حَيٍّ فَداعِيهِ لِأَهلِ الأَرضِ دَاعِي

وما للمرءِ خيرٌ في حياةٍ إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاع[1]

فالشّاعر يصارع في نفسه رغبة الحياة (الخلود) وخوف الموت، ويبث العزيمة في نفس خائفة، ويتعجّب من خوفها، وهي تؤمن أنَّ العمر محدود والأجل محتوم، وليس في الإمكان أنْ تزيد يوما أو تنقص، ويخاطب نفسه أنْ تصبر؛ لأنَّه لا بقاء لحي؛ ولأنَّ الخلود مستحيل، فالموت يسطو على القوي والضعيف، وهو نهاية المطاف.

ووقف الشّاعر العباسي بثقافته وشاعريته المرهفة إزاء ثنائية الحياة والموت التي شغلت البشرية منذ الأزل، على الرغم من إيمانه أنَّ الحياة رحلة قصيرة تبدأ بالولادة وتنتهي بالموت، وأسرف في الحديث عن قصر الحياة وسرعة انقضاء أيامها، وأيقن معظم شعراء العصر العباسي أنَّ الحياة أمل باطل ونعيم زائل، وأنَّ الموت حق يسطو على الجميع، مصداقا لقوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[2]. فراحوا يرددون هذه الحقيقة المؤلمة التي أفجعتهم، وظلَّت الهاجس الذي يؤرقهم في كلّ لحظة، وبدا ذلك جليا في قول أبي العتاهية:

ألا إنّ المَنِيّةَ مَنْـ ـهَلٌ وَالخَلْقُ نَاهِلُهُ

أوَاخِرُ مَنْ تَرَى تَفْنَى كَمَا فَنِيَتْ أوَائِلُهُ[3]

---

[1] عباس، إحسان: **شعر الخوارج**، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1974، ص108.109.

[2] آل عمران، آية 185.

[3] أبو العتاهية، أبو إسحق إسماعيل بن القاسم: **الديوان**، د.ط، دار صادر، بيروت، 1964، ص365.

وقوله:

كُلُّ نَطّاحٍ مِنَ الدَّهْـ ـرِ لَهُ يَوْمٌ نَطُـــوحُ

نُحْ عَلى نَفْسِكَ يَــا مِسْكينُ إنْ كُنْتَ تَنُوحُ

لستَ بالباقي ولو عُمّـ ـرْتَ ما عُمّرَ نُــوحُ[1]

إنّ نظرة أبي العتاهية تجاه الحياة والموت وموقفه منهما، تلتقي مع رؤية كثير من شعراء عصره، فالمرء مهما طال عمره لا بد من يوم يلاقي فيه حتفه، ومهما حاول الفرار من الموت، فإنَّ الحقيقة ستظهر أمام عينيه؛ لتقول قولها الفصل أنْ لا سبيل إلى البقاء والخلود.

والمتنبّي كغيره من شعراء عصره، تناول ثنائية الحياة والموت، وقدَّم رؤيته فيها، وكان من أكثر الشّعراء عمقا في الحديث عنها، ومن هنا فقد حملت الدراسة نظرة المتنبّي للحياة والموت، وهذا ما سيكشف من خلال دراسة لبعض أشعاره المتعلقة بالموضوع.

[1] المرجع السابق، ص117.

الفصل الأول

مفهوم الحياة والموت في شعر المتنبّي

المبحث الأول: موقف الشّاعر من الحياة.

أولا: ذم الحياة

ثانيا: حب الحياة

1. **التشبّث بالحياة.**
2. **الشّباب.**
3. **المرأة.**

المبحث الثاني: موقف الشّاعر من الموت.

أولا: المعتقد المذهبي عند الشّاعر.

ثانيا: حتميّة الموت وشموليته.

ثالثا: الموت دعوة إلى الفروسية.

رابعا: الحبّ والموت.

المبحث الأول

موقف الشّاعر من الحياة

قضى أبو الطيّب المتنبّي حياته كلها في المغامرات والمنازعات، فلم تكن حياته سلسة، بل كانت سلسلة شدائد ومصاعب، بعيدة عن الهدوء والسكينة، وكانت ثورته ضد الدنيا والنَّاس ثورة صارخة؛ لأنَّها نابعة من أعماقه، فجاءت نتيجة تجربة قاسية عاشها الشّاعر[1]، فلا مركزا يتبوأه من سيف الدولة، ولا ولاية يحصل عليها من كافور، فضلا عن حقد الحاقدين وحسد الحاسدين، فقد أحسّ أنَّه فقد كل شيء عظيم تمنَّاه في الحياة.

وملئت حياة الشّاعر بالنزاع والطعن، فكانت ممزوجة بالألم والمعاناة، يسيطر عليها القلق والاضطراب، فالحياة التي يريدها أبو الطيّب حياة عزّة وكرامة ورفعة، يغلب عليها طابع القوة، ويسودها النّبل والشرف، والقوة التي يتغنّى بها الشّاعر، ليست قوة الأجساد، وإنّما هي قوة النَّفس والأخلاق، وسداد الرأي، قوة أمام الحياة ومصائبها[2].

فالحياة في نظره حرب حامية الوطيس، لا راحة فيها ولا أمان، وهذا بدوره انعكس على موقفه من الحياة، ويكشف العقاد عن نظرة الشّاعر للحياة في قوله: "إنَّ الحياة حرب ضروس علاقة الإنسان فيها بالإنسان علاقة المقاتل بالمقاتل، فهو يركِّب سنانا من صنعه في كل قناة ينبتها الزّمان، وما المودّة فيها إلا من حيل الحرب أو هدنة في حومة القتال"[3].

وقد عَدَّ المتنبّي الحياة وسيلة لتحقيق أمر عظيم، فغايته المجد والسلطان، ولأنَّ حياته حياة فتوة وفروسية، فهو فارس تعرفه الخيل، والليل، والبيداء، أحبّ الحرب والنزال، واشتهى الطعن والقتال[4]، أكَّد أنَّ القوة وسيلة الإنسان للوصول إلى الغايات الكبرى والمعالي، وتحقيق العزّة

---

[1] ينظر: نافع، عبد الفتاح صالح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ط1، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1983، ص55.

[2] ينظر: شرف الدين، خليل: **المتنبي أمة في رجل**، د.ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ت، ص141.

[3] العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص207.

[4] ينظر: العقاد، عباس محمود، وآخرون: **أبو الطيب المتنبي حياته وشعره**، د.ط، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، 1982، ص19.

والكرامة، ولهذا فقد "فلسف الحياة فلسفة قوة كما فلسف أبو العتاهية الحياة فلسفة زهد، فويل للضعيف، وويل للجبان، وويل لمن يخاف الحوادث، وويل لمن يهاب الموت"[1].

كان صراع المتنبّي مع الحياة صراعا عميقا، ولهذا فإنَّ معظم شعره يكاد يكون صورة دقيقة لحياته الممزوجة بالألم والتعب، فما هو إلا مرآة تعكس حياته الخاصة منذ بدئها إلى خواتيمها، وهو عصارة تجاربه في الحياة، فهل كان المتنبّي محبّا للحياة؟ متيّما بها؟ أو أنَّه ناقمٌ عليها؟ معرضا عنها؟ إنّ موقف المتنبّي يتَّضح بجلاء من خلال شعره، ويمكن الوقوف على ملامح هذا الموقف في عناوين متفرقة في هذا المبحث.

أولا: ذم الحياة:

إنَّ الحياة . أولا وقبل كل شيء . واقعة ليس علينا إلا أن نتقبّلها، وعلى الرغم من أنَّنا لم نطلبها، إلا أنَّنا وجدنا أنفسنا أحياء[2]، وعلى الرغم من أنّ الإنسان مجبول على حبّ الحياة، إلا أنَّه لا يكف عن شتمها في بعض الأحيان، والواقع أنَّ لحظة قصيرة من الألم، ربما تدفع بنا إلى الكفر بالحياة، وبغضها وشتمها، وننسى الخيرات التي وضعتها الحياة بين أيدينا[3].

فالحياة لا تخلو من المتاعب والمصاعب، والأحزان والشدائد، وهي منبع الفرح، والسعادة، والحزن، والأسى، واللذّة، والمعرفة، والحكمة، لا تمام للإنسان إلا بها[4]، والشّاعر صارع الحياة وصارعته، وذاق منها العسل والحنظل، لكنَّ حنظلها كان أكثر من عسلها، فتولَّد لديه الإحساس بضيم الحياة، التي ما لبثت أنْ أمطرت عليه وابلا من المصائب والنكبات، وراح يصور ما وقع عليه من بؤس وشقاء، مستعينا بقدرته الشّعرية وثقافته المتنوعة، فيصوِّر غدر هذه الحياة الفانية، وهي التي لا "تحفظ عهدا أو تتم وصلا، والإنسان لا يملّ هذه الحياة، والخلود فيها محال"[5]، وهي تأخذ ما تعطي، وتسترد ما تمنح، يقول في تعزية سيف الدولة الحمداني بوفاة أخته:

---

[1] الشملان، نورة صالح: **شخصية المتنبي في آثار الدارسين**، ط1، دار الصافي للثقافة والنشر، السعودية، 1990، ص106.

[2] ينظر: إبراهيم، زكريا: **مشكلة الحياة**، د.ط، دار مصر للطباعة، د.ت، ص27.

[3] ينظر: نفسه، ص20.

[4] ينظر: التوحيدي، أبو حيان: **المقابسات**، تح: حسن السندوبي، ط1، 1929، ص234.

[5] الخياط، جلال: المثال والتحول: **آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته**، د.ط، وزارة الإعلام، بغداد، 1977، ص57.

أبَداً تَسْتَرِدّ مَا تَهَبُ الدّنْـ يَا فَيا لَيتَ جُودَها كانَ بُخْلا

فكفَتْ كوْنَ فَرْحةٍ تورِثُ الغمّ وَخِلٍّ يُغادِرُ الوَجْدَ خَلاًّ

وَهيَ مَعشُوقةٌ على الغَدْرِ لا تَحْـ ـفَظُ عَهْداً وَلا تُتَمّمُ وَصْلا[1]

وتعزَّز الإحساس لديه بأنَّ الحياة ماكرة، لا يمكن الوثوق بها، ولا تستحق البكاء عليها، فالشّاعر يعبِّر عن حالته النفسية وما يعتريها من رزايا، فمنذ صباه، أدرك مرارة العيش، فضلا عن قساوة الحياة وضيمها له، ما أدَّى إلى ارتسام الفجائع في قلبه، وتوطيدها في نفسه، فغدا ينظر إلى الحياة نظرة يتوشَّحها السَّواد، نظرة مبنية على أساس الغدر والخيانة، فهي تسترد باليمين ما وهبته بالشمال، وعلى الرغم من خداعها وخيانتها إلا أنَّها تبقى مرغوبة، ويحذر الشّاعر من التعلّق بأهوائها والتمسّك بحبالها، وعلى الرغم من غدرها إلا أنّ أكثرها وفاء تلك التي تصحبه لعمر مديد، حتى يحلّ عليه المشيب، ليأخذ أكثر قدر ممكن من ملذّات الحياة ومتعها، يقول:

وَأَوفى حَياةِ الغابِرينَ لِصاحِبٍ حَياةُ امرِئٍ خانَتهُ بَعدَ مَشيبِ[2]

ويؤكِّد الشّاعر أنَّ الحياة الدنيا ما هي إلا دار فناء وزوال، فعلى الإنسان أنْ لا يغترّ بها مهما كان عطاؤها، فلا أمان لها، إنَّها دار غرور وخداع، فالشّاعر ينبذ التمسّك بشيء فَانٍ نهايته الزوال، و"يتكئ الشّاعر على مسلّمة متداولة بين الأفواه؛ هي أنَّ الحياة غادرة، لعوب، لا عهد لها، ولا ذمام، ولا جدوى من الحرص عليها، والتهالك على مسرّاتها وأطايبها، وهذا لتفشي الموت والدَّمار في صميمها؛ فكل ما فيها فَانٍ، مصيره العدم، والغياب الأكيد"[3] ، يقول في رثاء محمد بن إسحاق التنوخي:

إنّي لأعْلَمُ، واللّبيبُ خَبِيرُ أنْ الحَياةَ وَإنْ حَرَصْتُ غُرُورُ

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، 3/ 250.

[2] المرجع السابق، 1/ 176.

[3] ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ط1، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، 2011، ص234-235.

ورَأَيْتُ كُلاًّ ما يُعَلِّلُ نَفْسَهُ بِتَعِلّةٍ وإلى الفَنَاءِ يَصِيرُ[1]

ويبيّن الشّاعر أنّ الدنيا لا تصفو لمن أدرك أسرارها وعرف معانيها، كما أنّها دار زوال لا تبقي على أحد، ومصير الأمم القادمة كمصير الأمم السالفة، فالهلاك واقع لا محالة، وفي رثاء فاتك أبي شجاع[2] يقول:

تَصْفُو الحَياةُ لجَاهِلٍ أوْ غافِلٍ عَمّا مَضَى فيها وَمَا يُتَوَقّعُ

وَلمَنْ يُغالِطُ في الحَقائِقِ نفسَهُ وَيَسومُها طَلَبَ المُحالِ فتطمَعُ

أينَ الذي الهَرَمانِ مِنْ بُنْيَانِهِ ما قَوْمُهُ ما يَوْمُهُ ما المصرَعُ

تَتَخَلّفُ الآثارُ عَنْ أصْحابِها حِيناً وَيُدرِكُها الفَنَاءُ فتَتْبَعُ[3]

ويكشف الشّاعر عن طبع الدنيا ويشبهها بطبع الغواني، فكلاهما لا يدوم على العهد، ولا يستقر على حال، ولو رآها الإنسان على حقيقتها لأدرك أسرارها، وتثبَّت من زوالها، يقول في تعزية سيف الدولة بوفاة أخته:

كُلُّ دَمْعٍ يَسِيلُ مِنهَا عَلَيْهَا وَبِفَكِّ اليَدَينِ عَنْهَا تُخَلّى

شِيَمُ الغَانِيَاتِ فِيهَا فَلاَ أدْ ري لِذَا أنَّثَ اسْمَهَا النُّاسُ أمْ لاَ[4]

ويظهر تشاؤمه بشدة من هذه الدنيا الخادعة عندما يصفها بالفاجرة؛ لتتابع النكبات عليه، فقد تفاقمت حسرته، ما دفعه إلى رسم صورة موحشة مليئة بالإساءة والفحش للحياة، فهذه الحياة تهدم ما تبني، وتغري الناس بمفاتنها؛ حتى يتنازعوا عليها، ثمَّ تفتك بهم، يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 231.

(2) فاتك الرومي، الملقب بالمجنون لشجاعته، ويقال له فاتك الكبير ممدوح المتنبي، أخذ من بلاد الروم صغيرا، وتعلم الخط في فلسطين، وكان في خدمة الإخشيد فأعتقه وأقطعه الفيوم وأعمالها، فأقام بها.

ينظر: الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد: **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين،2002، 126/6.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 13.

(4) نفسه، 3/ 251.

فَذي الدّارُ أخونُ من مُومِسٍ وأخدَعُ مِن كَفّةِ الحابِلِ

تَفَانَى الرّجالُ على حُبّها وما يَحْصُلُونَ على طائِلِ[1]

ويتابع الشَّاعر في مهاجمة الدنيا، ويرى أنَّ أهل الغرامِ أغرموا بها، ولم يعلموا خداعها، ولو عرفوا حقيقتها ما تفانوا في حبِّها، وتنازعوا عليها، يقول:

مِمّا أضَرّ بأهْلِ العِشْقِ أنّهُمُ هَوَوا وَمَا عَرَفُوا الدّنْيَا وَما فطِنوا[2]

ويعلن ثورته على الحياة الذليلة غير المشتهاة، فهي كالسَّمِّ يجري في شرايينه، فيقتلهُ طباعها، ولهذا يبغضها ويستغني عنها، وسرعان ما يتخلَّص منها، فإن لم تكن الحياة التي يطمح إليها الشَاعر مفعمة بالعزّة والكرامة والرفعة، فلن تكون محببة لنفسه، ولا جدوى منها، يقول:

وَمَا الحيَاةُ وَنَفْسِي بَعْدَ مَا عَلِمَتْ أنَّ الحيَاةَ كَمَا لا تَشْتَهِي طَبَعُ[3]

وقد صحب الشّاعر الدنيا فترة طويلة، فأدرك ماهيتها، وعرف تنكرها لأبنائها، يقول:

وَمن صَحِبَ الدّنيا طَوِيلاً تَقَلّبَتْ على عَيْنِهِ حتى يَرَى صِدْقَها كِذبَا[4]

وعند تأمّله العميق في مظاهر الحياة السّارَّة والمحزنة، يظهر تشاؤمه بجلاء من هذه الحياة، التي بدت كأنَّها تقف له بالمرصاد، أينما حلَّ وارتحل، فلم تتركه ينعم ويهنأ، وإنَّما كان من نصيبه العناء والشقاء، فداهمته رزايا الدنيا ونوائب الأيّام، وبدت كالمطر المنهمر فوق رأسه، يقول:

أظْمَتْنِيَ الدّنْيا فَلَمّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عليّ مَصائِبَا[5]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 162. 163.

[2] نفسه، 4/ 365.

[3] نفسه، 2/ 331.

[4] نفسه، 1/ 182.

[5] نفسه، 1/ 252.

ففي هذا البيت يصرّح الشّاعر بمعاناته المستمرة في الحياة، فعندما أقبل عليها طالبا عطفها، قابلته بالرفض والإعراض، وكان حظّ الشّاعر منها الحرمان واليأس، فلم تهبه سوى المشقّة والتّعب؛ لذلك بغضها وذمّها، وأظهر تشاؤمه منها.

والحياة بطبعها متقلّبة، والإنسان بطبعه طمّاع، ومهما منحته من حوائج لن يكفَّ عن طلب المزيد منها، وقد يحصل على مراده في بعض الأحيان، إلا أنَّه سرعان ما يفجع بفقد ما حصل عليه، وربما يحسب أنَّ المصائب والشدائد زالت وتلاشت، فيفزع ويخيب أمله عندما تفاجئه على غفلة، فيلقي بلومه على هذه الدنيا الخادعة، يقول في رثاء أخت سيف الدولة:

وَإنْ سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فجَعْنَ بهِ وَقَد أتَيْنَكَ في الحَالَينِ بالعَجَبِ

وَرُبّمَا احتَسَبَ الإنْسانُ غايَتَهَا وَفاجَأتْهُ بأمْرٍ غَيرِ مُحْتَسَبِ

وَمَا قَضَى أحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ وَلا انْتَهَى أرَبٌ إلاّ إلى أرَبِ[1]

وتتجلَّى خيبة أمله في الحياة والمجتمع المحيط به، حين يشكو الحياة والأحياء، ويعبّر عن شدة المأساة، ويملُّ المقام بين عشيرته، ويصرِّح بأنَّه لم يهنأ في أيّ مكان يحلّ به، فلم يخلُ أيّ مكان يحلّ به من المكائد والدسائس التي كانت تتربص به، وهذا يولّد لديه الإحساس بالوحدة والضيم، وفقدان كل ما يربطه بالحياة، ففي هذه الحياة يتساوى الصالح والطالح، وهذا جعله يشعر بالغربة بين الناس، ويجسِّد هذا الألم والشقاء في قوله:

أمَا في هَذِهِ الدّنْيَا كَرِيمُ تَزُولُ بِهِ عنِ القَلْبِ الهُمومُ

أمَا في هَذِهِ الدّنْيَا مَكَانٌ يُسَرّ بأهْلِهِ الجارُ المُقيمُ

تَشَابَهَتِ البَهَائِمُ وَالعِبِدَّى عَلَيْنَا وَالمَوَالي وَالصّميمُ[2]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 224. أرب: الحاجة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة أرب.

[2] المرجع السابق، 4/ 282. العِبِدَّى: العبيد الذين ولدوا في المِلْك، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة عبد. الصميم: يقال للرجل: هو من صميم قومه إذا كان من خالِصِهم، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة صمم.

ومعظم شعره في مصر في أثناء إقامته في كنف كافور الإخشيدي كان يفيض لوعة بالأسى ومرارة من الحياة، فلم يعرف طعم الحياة وملذّاتها، وعلى الرغم من اجتياح الألم لكيانه، لم يسلم من حسد الحساد له، ويتعجّب ممن يحسد حياته البائسة، فيقول:

ماذا لَقيتُ منَ الدّنْيَا وَأعْجَبُهُ أني بمَا أنَا شاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ[1]

ويصل الأمر بالشّاعر تفضيل الموت على الحياة؛ لأنَّها تمثل صراعا بينه وبين حاسديه، مما دفعه إلى بغض الحياة المغمورة بالحسّاد الذين يتمنون زوال النّعم عنه، فلا طعم لحياة ممزوجة بهم، وأصبحت حياته معكرة الصفو، ولا تُنقَّى إلا بزوالهم، حيث تماثل عنده كل من الموت والحياة التي تعجّ بالحسّاد، فهو "شديد التأفف من مجرد رؤية تلك الذوات تدبّ بعيدا عنه، وتقاسمه العيش، وتنعم بما ينعم به"[2]، فيصف معاناته إزاءهم في قوله:

وما لَيْلٌ بأطْوَلَ مِنْ نَهارٍ يَظَلّ بلَحظِ حُسّادي مَشُوبَا

وما مَوْتٌ بأبْغَضَ مِنْ حَياةٍ أرَى لَهُمُ مَعي فيها نَصيبَا[3]

ويرى الشّاعر أنَّ الدنيا ظالمة جائرة؛ لِسلبها عزيزا عليه، إذ خسر جدته وفجع بفقدانها، فغدت الدنيا في وجهه سحابة سوداء أمطرت عليه وابلا من الحزن، ومن هنا حاد عنها وغضّ نظره عن مفاتنها، ولم يكتف بذلك، بل ذمَّها ووقف أمامها يتحداها، ولم يقبل ضيمها، يقول:

كذا أنَا يا دُنْيا إذا شِئْتِ فاذْهَبي ويا نَفسُ زيدي في كرائهِها قُدْمَا[4]

والشّاعر يبحث عن السمو والرفعة التي تناسب مقامه، وأمّا همومه فتتمحور حول هموم الإنسان الطموح، صاحب الهمّة العالية الذي عقّته الحياة، وحرمته من تحقيق مبتغاه، يقول:

لحَى الله ذي الدّنْيا مُناخاً لراكبٍ فكُلُّ بَعيدِ الهَمّ فيهَا مُعَذَّبُ

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 142.

[2] ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص179.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 268.

[4] نفسه، 4/ 235.

ألا لَيْتَ شعري هَلْ أقولُ قَصِيدَةً فَلا أشْتَكي فيها وَلا أتَعَتّبُ[1]

لم يأت سوء الحياة من جانب واحد، فإنّ مساوئها تجلّت في حساده وأعدائه، فقد ذمّ الشّاعر أهل زمانه الذين يكيدون له، وهذه الدنيا وأهلها ولّدت في نفسه النقمة عليهم، وذلك لمعاناته من دسائس الحسّاد وخفاياهم، وازداد هذا الإحساس في أثناء صراعه في معترك الحياة، فهو ناقم عليهم، واحتقر الناس جميعا ولم يستثن منهم أحدا، وعدّ علاقته معهم من نكد الدنيا[2]، ومن شؤم الحياة أن تدفع الحر ليظهر الصداقة مع عدوه؛ ليأمن عاقبة شرّه، فالحياة ترغم الحر على فعل ما لا يطاق ولا يحتمل، وقد أبحر في خياله ورسم لهم صورة يبدو فيها بغضه لهم، ونفوره منهم، يقول:

أذُمّ إلى هذا الزّمانِ أُهَيْلَهُ فأعْلَمُهُمْ فَدْمٌ وأحزَمُهمْ وَغْدُ

وأكرَمُهُمْ كَلْبٌ وأبصرُهُمْ عمٍ وأسهَدُهُمْ فَهدٌ وأشجَعُهم قِرْدُ

ومن نَكَدِ الدّنْيا على الحُرّ أنْ يَرَى عَدُوّاً لَهُ ما من صَداقَتِهِ بُدُّ[3]

وهكذا تشكلت آفاق رؤيته التشاؤمية للحياة، نتيجة النكبات المتتابعة منذ صباه، فوفاة والدته منذ صغره ونشأته الفقيرة، ودخوله السجن وعذاباته فيه، وكثرة الحساد من حوله، وفجيعته بفقد جدته، وعجزه عن كسب منصب عند سيف الدولة على الرغم من علاقته الطيبة معه، وخيبة أمله في كافور، ومكائد النّاس التي لا حدود لها، أسهمت كلها في الشعور بالضيق إزاء الحياة، وبدا الألم بارزا في شعره، غير أنَّ ضجر الشّاعر من الحياة وذمّها لا يعني كرهها وعدم الاهتمام بها، بل كثرة نوائبها في كثير من جوانب حياته، جعلته يبغضها ويحمل ضغينة بين طياته عليها، وهذا ما سيتم توضيحه في العنوان التالي.

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 304.

(2) ينظر: البغدادي، أحمد سعيد: **أمثال المتنبي وحياته بين الألم والأمل وقطع مختارة من شعر المتنبي**، ط2، مطبعة حجازي، القاهرة، 1934، ص11.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 92. 93.

ثانيا: حبّ الحياة:

لقد أحبّ الشّاعر الحياة الكريمة المفعمة بالعزّة والسّمو والرفعة، فضلا عن حبه لملذّات الحياة ونعيمها، وتجلّت مظاهر شغفه بالحياة في جوانب عدّة من شعره، ومن ذلك حديثه عن الشّباب الذي بكاه بكاء مرا، وتمنّى بقاءه، وتحسَّر على ضياعه، وفجع بفراقه، والمرأة التي صورها بالروح التي تبث في الجسد، فتدبّ فيه الحياة، وقد جعل الشّاعر من هذه الظواهر معادل للحياة، وما هو إلا دليل على تشبّثه برحاب الحياة، وستناقش الصفحات القادمة هذه الظواهر.

1. التشبّث بالحياة:

يبيّن الشّاعر تعلّقه بالحياة المحبّبة للنفوس، فكلّ نفس تطلب الحياة وتكون حريصة عليها، فيحرص عليها كل من الشّجاع والجبان على الرغم من اختلاف فعلهما، إلا أنّ كلا منهما يتمسّك بالحياة، فتعلّق الجبان بالحياة دفعه إلى تجنب خوض الحروب، والابتعاد عن ساحة الوغى، حرصا على حياته، والشّجاع عاشق للحياة أيضا، هائم بها، وما دفعه لخوض المعارك حرصه الشّديد على حياته، ودفاعا عن نفسه، يقول:

أرَى كُلَّنَا يَبْغي الحَيَاةَ لنَفْسِهِ حَريصاً عَلَيها مُسْتَهاماً بها صَبّا

فحُبُّ الجَبَانِ النّفْسَ أوْرَدَهُ التُّقى وَحُبُّ الشّجاعِ الحرْبَ أوْرَدهُ الحرْبَا[1]

ويربط ما بين لذّة الحياة وطيبتها، ولذّته المتمثلة في أخلاقه وعزته وكرامته، فلا حياة لمن فقد كرامته، على الرغم من طيب العيش وهناءته، فالشّاعر يهوى الحياة الكريمة العزيزة الخالية من الذلّ والهوان، فهذه رؤية لنفس أبية تأبى العيش المهان، يقول:

وَمَا مَنزِلُ اللّذّاتِ عِندي بمَنْزِلٍ إذا لم أُبَجَّلْ عِنْدَهُ وَأُكَرَّمِ[2]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 190.

[2] نفسه، 263/4.

ويبكي الشّاعر على هذه الدنيا التي سيبتعد عنها ويفارقها، فمهما طال عمره لا بد من ملاقاته المنية، وبكاؤه دليل على عشقه للدنيا المطبوعةِ بطابعِ البَيْنِ، فطبعها يفرّق الناس، وينقلهم من عالم الحياة إلى عالم الموت، ولهذا يبكي الشّاعر حين يتذكر أنّه مفارق الدنيا يوما، يقول:

نَبْكي على الدّنْيا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمُ الدّنْيا فَلَمْ يَتَفَرّقُوا[1]

ويرى في الحياة موطن العشق والهوى، واللهو والصبا، ويجسّد منها فتاة أسرت قلبه، ثمّ ينتقل ليؤكّد بأنّ الوصال على هذه الحياة لن يدوم طويلا، فستداهمه حبال الموت، وتقطع عنه ملذّات الحياة ونعيمها، يقول:

ومَنْ لم يَعشَقِ الدّنيا قَديماً ولكِنْ لا سَبيلَ إلى الوِصالِ[2]

وتتجلّى نظرة الشّاعر في الحياة في رغبته الجامحة في التملّك وطلب الإمارة، لذلك تقرَّب من كافور الإخشيدي مادحا إياه بطريقة يقرِّب له مراده، وذلك حينما جعل نفسه مغنيا؛ ليسمعه ما طاب من الغناء، وجعل ممدوحه في صورة السكران، فيتلذَّذ من الغناء والشراب معا، دون أنْ يعطيه نصيبا من شرابه وما قصد به الإمارة، ثمّ يقرّب الصورة لديه أكثر فيصارح الممدوح قائلا: إنَّه وهب الزّمان كل ما يليق به، فهلا مددت كفك وتدفقت خيراتك، فيفند نظرته إلى الحياة وحاجته لها من خلال تحقيق آماله وطموحاته، يقول:

أبَا المِسْكِ هَلْ في الكَأْسِ فَضْلٌ أنَالُهُ فإنّي أُغَنّي مُنْذُ حينٍ وَتَشرَبُ

وَهَبْتَ على مِقدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا وَنَفسِي عَلَى مِقدَارِ كَفَّيْكَ تَطلُبُ

إذا لَمْ تَنُطْ بي ضَيْعَةً أوْ وِلايَةً فَجُودُكَ يَكسُوني وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ[3]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 75.

[2] نفسه، 3/ 141.

[3] نفسه، 1/ 306. 307.

"وفي هذا الانفتاح الطلبي تزدوج مطالب الشّاعر، وتتكثف موزّعة بين المطلب المدحي المعتاد، المتمثل في طلب المال، والمطلب الثاني الغرائبي الممثل في طلب الملك؛ أي تقليص المسافة بين كلا الطرفين، المادح والممدوح، وإضفاء نوع من الاستواء بينهما"[1].

ويرى الشّاعر أنّ الحياة حلبة صراع، يتناحر النّاس عليها وعلى ملذّاتها؛ للمكوث في نعيمها أكبر قدر ممكن، وينبغي على هذا الصراع أنْ ينفع الأخيار الصالحين، ويضرّ بالأشرار الطالحين، يقول:

لمَنْ تَطْلُبُ الدّنْيا إذا لم تُرِدْ بها سُرُورَ مُحِبٍّ أوْ إسَاءَةَ مُجرِمِ[2]

ويتمسّك بالحياة وملذّاتها ويؤرقُه فكرةُ الرحيل عنها؛ لأنَّ رحيله عنها يسلب ما بداخله من أطماع ورغبات، وعند تفكّره في حقيقة فناءِ الحياةِ والأحياء، تهدأ جوارحه، ويصفو عقله، ويخفّ غضبه، إذ إنّ الحياة وزوالها أمر محتوم سيصل إلى البشرية جمعاء، يقول:

وَمَنْ تَفَكّرَ في الدّنْيَا وَمُهْجَتِهِ أقامَهُ الفِكْرُ بَينَ العَجزِ وَالتّعَبِ[3]

2. الشّباب:

يأخذ شعر الشّباب حيِّزا كبيرا في الشِّعر العربي، وله مكانة مرموقة عند الشّعراء، فهو نابع من حسرتهم الحارقة على لهيب الذكريات الجميلة، ويرى الأصمعي أنّ أفضل أنواع الشّعر في المراثي والحزن والبكاء على الشّباب[4].

ويرى المتنبّي في الشّباب عهد القوة، والفتوة، والصحة، والعافية، وقد أفرط في البكاء على شبابه المنقضي، الذي هو جزء من الحياة، بل نراه يذرف الدموع بغزارة وأسى على أيّام شبابه، أو

---

(1) ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص62.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 271.

(3) نفسه، 1/ 225.

(4) ينظر: الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه: **العقد الفريد**، تح: مفيد محمد قميحة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، 361/2.

بعبارة أخرى قبل انتهاء تلك الأيّام، وانتهاء فصولها على مسارح الشّباب وملاعب الصبا[1].

ولا ينفك الشّاعر عن ذكر شبابه وتمنِّي عودته، ويتشبّث به وإنْ كان يعلم أنّ ذهابه بلا عودة؛ لأنَّ "الشّباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله، كما أنَّ أطيب الثمار بواكيرها"[2].

ويصرِّح أنّ الحياة شهية، يتمنَّى المرء البقاء والخلود فيها، ويتحسّر على نفسه عندما يستشعر قرب فراقه لها، ويؤرّقه هذا الإحساس النَّابع من ضعف الهمة، وقلّة الحيلة، وقدوم الكهولة، فهو يبكي شبابه بلوعة وألم، فالحياة كثيرة الآمال، والشّاعر طموح، أبيّ النفس، قوي الإرادة، يصبو للمعالي، وعند مفارقته لشبابه، تضعف همته، وتتغير ملامحه الجسدية، وتصبّ العلل فيه، ويغزو اليأس كيانه، ويجف الأمل لديه في الحصول على مراده، ويقينه بفقدان شبابه يحطم فؤاده، ويصل به الأمر أنْ يذرف الدموع بحرقة ولوعة، لإدراكه ضياع شبابه، وما ينتج عنه من وهن وعجز، فيحسّ بمغادرة أيّام الصبا واللهو التي لطالما أراد أنْ يقطن بها، كما يقطن الجنين في أحشاء أمه، يقول:

وَلَقَدْ بَكَيْتُ على الشَّبابِ وَلمّتي مُسْوَدّةٌ وَلِمَاءِ وَجْهي رَوْنَقُ

حَذَراً عَلَيْهِ قَبلَ يَوْمِ فِراقِهِ حتى لَكِدْتُ بمَاءِ جَفني أشرَقُ[3]

ويحنُّ الشّاعر إلى ذكريات الصبا التي ما زالت تشغل ذاكرته، وتختلج صدره، فتدبُّ فيه بواعث الأمل والسرور، وهو يعبِّر عن حزنه عندما تراوده تلك الذكريات المنقوشة في عقله، والمحفورة في فؤاده، ولهذا فإنَّ ذكرياته التي اندثرت من أمامه، جعلته يشعر بالموت قبل مداهمته له، فهو يتألم على أيّام شبابه، ويتمنَّى رجوع أيّام صباه، يقول:

ذِكرُ الصِّبَى وَمَراتِعِ الآرَامِ جَلَبَت حِمامي قَبلَ وَقتِ حِمامي[4]

---

[1] ينظر: عطوان، حسين: **مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي**، د.ط، دار المعارف، مصر، 1970، ص179.

[2] الابشيهي، شهاب الدين أحمد: **المستطرف في كل فن مستظرف**، ط2، مكتبة محمود توفيق، مصر، 1935، 30/2.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 76/3.

اللمة : إذا ألمّ الشعرُ بالمنكب فهو لِمّة، وقيل: إذا جاوز شحمة الأذن، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة لمم.

[4] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 119/4.

والمرء يسبح في رغد العيش ولا يتمنَّى زواله، وهذا يبعث في القلب السّكينة والطمأنينة، فإذا مرَّ به الزَّمان، وبدأ الوهن ينخر عظامه، والشّيب يغزو شعره، أحسَّ بنشوة الحياة وقيمتها الجمالية في وجدانه، وعندما يتقدم به العمر، يشعر بالضَّجر من الوهن الذي ألمَّ به وتغلغل بداخله، فطعم الحياة يكمن في الصّحة والشّباب، فإذا فقد هذين العنصرين لاحقته صروف الحياة وويلاتها، ودفعت به إلى الهلاك، حيث العمر عنده بكل سنواته صحة وشباب، وتعلّق المرء بالحياة واقع ملموس، وهذه الرؤية تدل على هيمان الشّاعر وشغفه بالحياة، يقول:

وَلَذيذُ الحَيَاةِ أَنْفَسُ في النّفْـ سِ وَأَشهَى من أنْ يُمَلّ وَأَحْلَى

وَإذا الشّيخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَـ لّ حَيَاةً وَإنّمَا الضّعْفَ مَلَّا

آلَةُ العَيشِ صِحّةٌ وَشَبَابٌ فإذا وَلّيَا عَنِ المَرْءِ وَلّى[1]

ويتحسّر على شبابه المنقضي الذي يشابه انقضاء الحياة، فهو يتمنَّى أن يعود إلى شبابه؛ لما فيه من قوة، وصلابة، وعزيمة، تدفعه لتحقيق طموحه وآماله في الحياة، إلا أنّ ظهور علامات الكبر عليه، وشعوره بقدوم الكهولة، جعله أكثر رزانة ووقارا، وهذا لا يطلبه الشّاعر؛ لأنَّه يسلب منه شبابه، وحينما يذهب شبابه تفنى حياته، يقول:

لَيتَ الحَوَادِثَ باعَتني الذي أخذَتْ مني بحِلمي الذي أعطَتْ وَتَجرِيبي

فَمَا الحَداثَةُ من حِلْمٍ بمَانِعَةٍ قد يُوجَدُ الحِلمُ في الشبّانِ وَالشّيبِ[2]

ويفتقد الشّاعر أيّام شبابه التي لا رجعة إليها، فحياة الإنسان أغلى ما يملك، وفترة الشّباب أفضل فترات الحياة، وهي بمثابة ثوب معار، سرعان ما يعرى منه المرء، وسرعان ما تنقضي هذه الأيّام، وهو يصرِّح بأنّ ما مضى لا يمكن استرجاعه، يقول:

ومَا مَاضِي الشَّبابِ بمُسْتَرَدٍّ ولا يَوْمٌ يَمُرّ بمُسْتَعادِ[3]

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 249-250.

(2) نفسه، 293/1.

(3) نفسه، 2/ 77.

ويوازن بين مرحلة الشّباب ومرحلة المشيب، ويوضّحُ أنَّ القوة والنشاط والحيوية لازمته في شبابه، ولم يجد في مرحلة الشّيب سوى الوهن والعجز، فأصبح يستعين بغيره ليساعده في شؤونه، بعدما كان يلبي حوائجه وحده، دون مساعدة أحد، وحلول المشيب عليه، جعله يحسّ باقتراب دنو أجله ، ولم يشعر بالحياة إلا عندما كان شابا، فهو يُقْرِنْ الحياة بمرحلة الشّباب؛ لما فيها من عزم وإرادة، وفقدان الشّباب ما هو إلا فقدان الروح من الجسد، يقول:

وَقَد أرَانِي الشَّبَابُ الرّوحَ في بَدَني وَقد أرَانِي المَشِيبُ الرّوحَ في بَدَلي[1]

ولا يهنأ في حياته، ولا يطيب عيشه عندما يراوده هاجس الكِبَر، وتقدّم العمر، فلا ينعم ولا تقرّ عينه إلا حين يُداعب أنفاسه نسيم الذكريات الموشّحة بأيّام الصّبا والشّباب، فتدخل في نفسه البهجة والسرور، وتهبه الحياة من جديد، كما يهب الغيث الحياة للأرض بعد إقفارها، فيزرع فيها الحياة بعد موتها، والشّاعر يتحسّر على هذه الأيّام التي مرت مسرعة من أمامه كلمح البصر، فيشعر بالألم والمعاناة على هذه الأيّام التي سرعان ما انقضت، وكأنّها لم تكن، وما هذه الحرقة واللوعة على أيّام الشّباب، إلا فاجعة فجع لفقدانها، فنقَّصت عليه عيشه، وما هذه الحسرة إلا دليل على تشبّثه بالحياة، وتعلّقه بحبالها، ووصالها، يقول:

وَكيفَ التذاذي بالأصائِلِ وَالضّحَى إذا لم يَعُدْ ذاكَ النّسيمُ الذي هَبّا

ذكرْتُ بهِ وَصْلاً كأنْ لم أفُزْ بِهِ وَعَيْشاً كأنّي كنتُ أقْطَعُهُ وَثْبَا[2]

3. المرأة:

لمعت المرأة عند العرب الجاهليين في أشعارهم، وارتبطت بالطقوس الدينية، فكان حضور المرأة رمزا للبقاء، وغيابها رمزا للفناء، وقد ظلَّت هذه الصورة حتى بعد الإسلام في العصرين الأموي والعباسي، فكان رحيل المرأة خراب الديار وإقفارها، وعودتها حياة ونماء وخصوبة.

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 202/3.

[2] نفسه، 1/ 183.

الأصائل: الوقت بعد العصر إلى المغرب، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة أصل.

ويبيّن الشّاعر أنَّ المرأة تبث الروح في الجسد، ومن شدَّة جمالها يفتن بها الناظر، بل إنَّ رائحتها العطرة إذا استنشقها الشيخ الهرم، أعادت إليه حيوية الشّباب، وأذهبت عنه الوهن، فحسنها، وبريقها، وجمالها الذي بدا كالقمر في إضاءته، يمنح الحياة لمن أوشك على فقدانها، يقول:

وَفَتّانَةَ العَيْنَينِ قَتّالَةَ الهَوَى إذا نَفَحَتْ شَيْخاً رَوَائِحُها شَبّا

لهَا بَشَرُ الدُّرّ الذي قُلّدَتْ بِهِ وَلم أرَ بَدْراً قَبْلَهَا قُلّدَ الشُّهْبَا[1]

ويخطّ صورة للمرأة تحمل في طياتها الحياة، كالغيث الذي يحيي الأرض بعد موتها، يقول:

لَيسَ القِبابُ على الرّكَابِ وَإنّمَا هُنّ الحَيَاةُ تَرَحّلَتْ بسَلامِ[2]

إنّ الاضطراب الكامن في جسد الشّاعر ينتج من حرارة العشق، فعشق المرأة عنده بمثابة الحياة، فقربه من المعشوقة جعله متيَّما بالحياة، وبعده عنها أضفى على حياته ضنكا وشظفا، وشتّان ما بين لهيب العشق المتمثل في عشق المرأة المفعمة بالحياة، وفقدانه المتمثل في زوال الحياة وفنائها، ومن هذا المنطلق أحبّ الشّاعر الحياة مثلما أحبّ المرأة، يقول:

وَخُفوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأيتِ لَهِيبَهُ يا جَنّتي لَظَنَنْتِ فيهِ جَهَنّمَا[3]

ويخطّ الشّاعر لوحة صاخبة بالحياة مستمدة من حديثه عن المحبوبة، فيرى في جفنيها لهب العشق، وكأنّ نظراتها الساحرة الفاتنة إلى عينيه، تدبّ فيه نبع الحياة، وفضّ المحبوبة نظراتها عنه تودي به إلى الهلاك، وهو يهيم في وصلها، وعندما تهبّ عليه نسمات الهواء وتُداعب وجنتيه، تنبض فيه الحياة، واستخدام الشّاعر لأسلوب التنبيه، يعلي مكانة المحبوبة في عقله

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 184/1.

بشر: جمع بشرة وهو ظاهر الجلد، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة بشر.

الشهب: النجوم السبعة، المعروفة بالدّراري، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة شهب.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 121/4.

(3) نفسه، 143/4.

ووجدانه، فيحثها على الالتفات إليه، وأن لا تعرض بنظراتها عنه؛ لأنَّ نظرة واحدة منها كفيلة بتخفيف ألمه، وتصب في داخله ماء الحياة، فتروي روحه العطشى، يقول:

بمَا بجفْنَيْكِ من سِحْرٍ صِلي دَنِفاً يهوَى الحيَاةَ وَأمَّا إنْ صَدَدتِ فَلا

إلاّ يَشِبْ فَلَقَدْ شابَتْ لَهُ كبدٌ شَيْباً إذا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلا

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلا أنّ رَائِحَةً تَزورُهُ في رِياحِ الشّرْقِ مَا عَقَلا

هَا فانْظُري أوْ فَظُنّي بي تَرَيْ حُرَقاً مَن لم يَذُقْ طَرَفاً منها فقدْ وَألا[1]

ويبدع في رسم صورة للمرأة تتداخل فيها الحياة، وذلك عندما يشبّه ريقها بماء الحياة، يحيي العاشق الولهان، حتى إذا وقع على الأرض أحيا ما بداخلها، فيبعث الحياة في الأموات الذين يقطنون في باطن الأرض، يقول:

فَذُقْتُ ماءَ حَياةٍ مِنْ مُقَبَّلِها لَوْ صَابَ تُرْباً لأحيا سالِفَ الأُمَمِ[2]

وجملة القول إنَّ نظرة الشّاعر للحياة نظرة متفاوتة خاضعة للظروف الاجتماعية والنفسية التي تحيط به، ويمكن تقسيم شعره إزاء الحياة إلى قسمين: قسم يصبُّ فيه حقده ونقمته على الحياة، فيبدو ساخطا عليها، كارها لها، وقسم ينثر فيه الحب على الحياة، فيبدو متشبّثا بها، متعلّقا بلذّاتها ونعيمها، محبّا لوصالها، متمسّكا بحبالها، لا يريد فراقها.

وعندما كان يذمّ الحياة، ويبغضها، ويبدي استياءه منها، لم يكن كرها لها، وإنّما كرها للأحياء فيها، الذين لطالما حاكوا المكائد والدّسائس له، ووقفوا بالمرصاد يتربصون به أينما وجد، فذمّهم وذمّ الحياة التي جمعتهم به، فضلا عن المصائب والشدائد التي انهمرت فوق رأسه، وجعلته ينظر إلى الحياة بمنظار أسود، فحياته مليئة بالأحداث الأليمة التي انعكست على نفسيته.

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 283.

دنفا: المرض، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة دنف.

وألا: طلب النجاة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة وأل.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 154.

المبحث الثاني

موقف الشّاعر من الموت

يعدّ الإنسان الموت فكرته المصيرية، ويبقى دائب البحث محاولا الولوج إلى أعماق فكرة الموت، إذ يقف حائرًا أمامَه، لا يستطيع مجابهته والانفكاك منه، لذلك عليه أن يتقبله . شاء أم أبى . منقادا له[1].

والشّعراء أكثر شعورا بظاهرة الموت والفناء، ذلك لتأمّلهم العميق في الوجود والعدم، والبحث عن حقائق الأشياء[2]، وقد وجدوا في قول الشّعر وسيلة للتعبير عن هذا الحدث المؤلم الخطير، فجاء شعرهم يموج بالشّكوى والمرارة من فاجعة الموت.

والمتنبّي من الشّعراء الذين وقفوا على الموت، وشغله التفكير فيه، وبرز ذلك في جوانب من شعره، ولتقصّي نظرة الشّاعر في الموت ينبغي الإحاطة بنماذج من شعره، فما موقف الشّاعر من الموت؟ وهل الموت مشكلة عنده؟ وهل آمن في الموت الّذي هو مقدر ومحتوم من الله؟ وما هي انعكاسات الموت على وجدان الشّاعر؟ وقبل الوقوف عند الموت في شعره، ينبغي معرفة أفكاره ومعتقداته المذهبية.

أولا: المعتقد المذهبي عند الشّاعر:

نشأ المتنبّي في الكوفة، "واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة، فكان يتعلم دروس العلوية شعرا ولغة وإعرابا"[3]، وفي شعره ما يدلّ على تشيّعه واعترافه بأفضليّة أهل البيت، وفي قصيدة له يخاطب ممدوحه طاهر العلوي الذي يرجع نسله إلى علي وفاطمة الزهراء، يشير إلى

---

[1] ينظر: الزيني، محمد عبد الرحيم: **حقيقة الموت بين الفلسفة والدين**، ط1، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، 2011، ص24.

[2] ينظر: هلال، عبد الناصر: **تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر**، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2005، ص16.

[3] البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تح: عبد السلام محمد هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997/2، ص347.

مبدأ من مبادئ الشيعة المتمثل في الشّفاعة، التي يراها الشّيعة أنّها اختصت بالنبي وآله وأهل بيته، يقول:

أَلطّيبُ مِمَّا غَنِيتُ عَنْهُ كَفَى بِقُربِ الأَمِيرِ طيبَا

يَبْنِي بِهِ رَبُّنَا المَعَالِي كَمَا بِكُمْ يَغفِرُ الذُّنُوبَا[1]

وأشادَ الشَّاعرُ بمناقب العلويين، وصفاتهم الحسنة، ومكارم أخلاقهم، فيصفهم بالكرم والإقدام والشجاعة، وهذا الوصف دليل على إعجاب الشّاعر بهم، يقول:

كَذا الفاطِمِيّونَ النّدى في بَنانِهِمْ أغَرُّ امّحاءً مِنْ خُطوطِ الرَّواجِبِ

أُناسٌ إذا لاقَوْا عِدًى فكأنّما سِلاحُ الذي لاقَوْا غُبارُ السّلاهِبِ[2]

والعلويون يتَّصفون بصفات كثيرة، والشّاعر جعل ممدوحه طاهر العلوي أعظم وأفضل معجزات النبوة[3]، وفي ذلك يقول:

وأبْهَرُ آياتِ التّهاميّ أنّهُ أبوكَ وأجدى ما لكُمْ من مناقِبِ[4]

ويبيّن أصل ممدوحه طاهر العلوي من خلال إرجاعه إلى جذوره، فهو ابن وصيّه علي بن أبي طالب، وابن فاطمة الزهراء بنت الرسول، وإسقاطه لقب الوصيّ على سيدنا علي مما عرف عن الشّيعة، يقول:

هُوَ ابنُ رَسولِ الله وابنُ وَصِيّهِ وشِبْهُهُما شَبّهْتُ بعدَ التّجارِبِ[5]

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 273.

(2) نفسه، 1/ 280.

السلاهب: الطويل من الخيل، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة سلهب.

(3) ينظر: الخراشي، سليمان بن صالح: **نظرات شرعية في ديوان المتنبي**، ط1، دار علوم السنة للنشر والتوزيع، الرياض، 2001، ص200.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 281/1.

(5) نفسه، 1/ 285.

فالشّاعر تعلَّق بالمذهب الشّيعي، وسار على دربه، وتلقى علومه فيه، وهذا يدل على أنَّه نشأ نشأة شيعية.

وحين خرج من الكوفة إلى بني كلب، أخذ يحثّهم على الثورة ضدّ الحكام ، والتحرّر من ظلمهم معتمدا على الخطابات الحماسية، وفي ذلك يقول ابن الأنباري في نزهة الألباء: "وكان المتنبّي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم، وادَّعى أنَّه علوي، ثمَّ ادَّعى النبوة، ثم عاد يدَّعي أنَّه علوي، إلى أن أشهد عليه في الشّام بالتوبة، وأطلق"[1].

والشّاعر طموح مغامر، يعشق السِّيادة، يسعى وراء المجد، وقد أوصله اعتداده بالنفس وافتخاره إلى درجة جعلته يشبّه نفسه بالرسل الكرام، وهذا موجود في فكر الشيعة ومعتقداتهم، يقول:

مَا مُقامي بأرْضِ نَخْلَةَ إلاّ كمُقامِ المَسيحِ بَينَ اليَهُودِ

أنَا في أُمّةٍ تَدارَكَهَا اللّـ ـهُ غَريبٌ كصَالِحٍ في ثَمودِ[2]

ويسقط الشّاعر الفكر الشيعي على ممدوحه محمد بن زريق الطرسوسي، وذلك عندما يجعل من سيفه قوة تتغلَّب على معجزات الأنبياء، فتعجز قدراتهم أمام سيفه، يقول:

أو كانَ صادَفَ رأسَ عازَرَ سَيفُهُ في يوْمِ مَعرَكَةٍ لأعْيا عيسَى

أوْ كانَ لُجُّ البَحْرِ مِثْلَ يَمينِهِ ما انْشَقّ حتى جازَ فيهِ مُوسَى[3]

والقدر لا يتحكَّم به سوى الله، والشّاعر يجعل محمد بن إسحاق التنوخي يتملّك القدر، ويسيّره كيفما شاء، فقد جعل الممدوح بمثابة الله عز وجل، وهذا وارد في فكر الشيعة، يقول:

مَلِكٌ تَصَوَّرَ كَيفَ شَاءَ كَأنَّمَا يَجْرِي بِفَصْلِ قَضَائِهِ المَقدُورُ[4]

---

[1] الأنباري، أبو البركات كمال الدين: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تح: إبراهيم السامرائي، ط3، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985، ص220.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 44 . 48.

[3] نفسه، 2/ 307.

[4] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي** نفسه، 2/ 239.

ويعلي الشّاعر شأن ممدوحه بدر بن عمار[1]، وذلك عندما يبيّن أنّ علمه "لو قسّم بين الناس لأغنى الله عن إرسال الرسل إليهم، وإنّ لفظه لو كان فيهم لاستغنى به الله عن إنزال الفرقان والتوراة والإنجيل"[2]، يقول:

لَو كانَ عِلمُكَ بِالإِلَهِ مُقَسَّماً في الناسِ ما بَعَثَ الإِلَهُ رَسولا

لَو كانَ لَفظُكَ فيهِمِ ما أَنزَلَ ال قُرآنَ وَالتَوراةَ وَالإِنجيلا[3]

ويبيّن أنّ ممدوحه بدر بن عمار ليس مثله أحد، ولم يخلق الله ما يشبهه، "وأنّ عظمته لو كانت أمانة ما أؤتمن عليها سيدنا جبريل"[4]، يقول:

يا بَدْرُ إنّكَ والحَديثُ شُجُونُ مَنْ لمْ يَكُنْ لِمثَالِهِ تَكْوِينُ

لَعَظُمْتَ حتى لوْ تَكُونُ أمَانَةً ما كانَ مُؤتَمَناً بها جِبْرِينُ[5]

ويتابع إسقاط الفكر الشيعي على ممدوحه، فقد صوره بالإله، وكاد أنْ يسجد له لولا معارضة الممدوح له، يقول:

طَلَبْنا رِضاهُ بتَرْكِ الّذي رَضِينا لَهُ فَتَرَكْنا السّجُودَا[6]

ويصف سيف الدولة الحمداني بصفات كثيرة، ومنها الشجاعة والإقدام، ورزانة العقل، والرأي السديد، وينتقل من الصّفات البشرية إلى الصّفات الإلهية، فيسقط على ممدوحه صفات تختص بالله وحده، فلا يعلم الغيب سواه، وهذا يندرج تحت الفكر الشيعي، يقول:

---

[1] أبو الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني.

ينظر: الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن: **أسرار البلاغة في علم البيان**، تح: عبد الحميد هنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص144.

[2] علام: محمد مهدي: **فلسفة المتنبي من شعره**، صحيفة دار العلوم، العدد (1)، 1355هـ، ص15.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 361.

[4] علام: محمد مهدي: **فلسفة المتنبي من شعره**، ص 15.

[5] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 340.

[6] نفسه، 2/ 87.

تَجَاوَزْتَ مِقْدَارَ الشَّجَاعَةِ وَالنُّهى إِلَى قَوْلِ قَوْمٍ أَنْتَ بِالْغَيْبِ عَالِمُ[1]

وفي أثناء إقامته في كنف أبي محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج[2] في الرملة، أقسم عليه أبو محمد أنْ يشرب كأسا من الخمرة، فقال:

حُيِّيْتَ مِنْ قَسَمٍ وَأَفْدِى المُقْسِمَا أمْسى الأنَامُ لَهُ مُجِلاً مُعْظِمَا

وَإِذَا طَلَبْتُ رِضَا الأمِيرِ بِشُرْبِهَا وَأَخَذْتُهَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ الأحْرَمَا[3]

فالشّاعر يجعل من شرب الخمرة معصية، ومخالفة أمر ممدوحه معصية أخرى، إلا أنَّه يجعل مخالفة أمر ممدوحه أعظم إثما ومعصية من شرب الخمرة، وهذا موجود في الفكر الشيعي، فمخالفة الولي بمثابة مخالفة الله.

وفي وداعه لأبي العشائر يربط بينه وبين دينه ودنياه، فرحيله عن أبي العشائر بمثابة فراقه للدين والدنيا، وكأنَه لا يبالي بدينه عند مفارقته أبا العشائر، يقول:

يا راحِلاً كُلُّ مَنْ يُوَدّعُهُ مُوَدِّعٌ دينَهُ ودُنْيَاهُ[4]

ويبدي احتقاره لمخلوقات الله، وينظر لها نظرة دونية، وكأنّها أقل منه منزلة وحكمة، ويعظّم نفسه، فالمخلوقات التي خلقها الله فيها ملائكة ورسل وأنبياء، ففضّل الشّاعر نفسه عليهم واحتقرهم، "ولذا تعاظم حسّ الشّاعر بالانتماء، وعلت أصوات نفوره من الآخر، الذي تضاءل ـ في نظره ـ واضمحل، إلى حدّ غدا معه في حكم اللاشيء"[5]، وفي ذلك يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 103.

(2) الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جُفّ الإخشيدي، لما أقام الجند أبا الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيد، جعلوا خليفته في تدبير الأمور، أبا محمد الحسن بن عبيد الله المذكور، وهو ابن عم أبيه، وكان صاحب الرملة من بلاد الشام.
ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، د.ط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000، 61/12.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 244.

(4) نفسه، 4/ 401.

(5) ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص36.

أيَّ مَحَلٍّ أرْتَقي أيَّ عَظيمٍ أتّقي

وَكُلّ مَا قَدْ خَلَقَ اللّـ ـهُ وَما لَمْ يَخْلُقِ

مُحْتَقَرٌ في هِمّتي كَشَعْرَةٍ في مَفْرِقي[1]

وجملة القول إنَّ الشّاعر حمل الفكر الشيعي وآمن به، وأخذ يسقط بعض المعتقدات الشيعية على ممدوحيه في شعره، وعندما كان يصل بممدوحيه إلى درجة الألوهية، فإنَّه كان يعبّر عن الفكر الشيعي الذي يؤمن به، وأمّا تقمّصه صورة الأنبياء، فربما يرجع ذلك إلى اعتداده الزائد بنفسه وغروره، وترفعه عن الذّات البشرية.

ثانيا: حتميَّة الموت وشموليته:

يعدّ الموت مسألة حسّية عقلية، بمعنى أنّها تجربة يومية يلمسها الإنسان بجوارحه كافة، ويعيشها كل يوم من أيّام حياته، وعلى الرغم من الأثر المروع الذي يتركه الموت في النَّفس البشرية، وبغضهم الشديد له، إلا أنّهم يُسلِّموا به ولا ينكروه، "ولكن معظمنا يودّ من صميم قلبه أنْ يتأخر مجيئه، نعترف بحتميّته، ولكنّنا في خضمّ الحياة الدنيا ومعترك المطالب والتكالب ننساه، أو نتناساه، نعتقد مخلصين أنّه لا مفر منه... نرى أنَّ الموت حقّ على الجميع، ولكننا نجهل متى يجيء الأجل، فيطرق بابنا الطرقة الأخيرة"[2].

ويقف الشّاعر موقفا دينيا من الموت، ويظهر ذلك من خلال إيمانه بحتميَّته وشموليته، وقبوله بوصفه قدرا مقدرا من عند الله، ولا مناص للمرء في الهروب والإفلات منه، ومع ذلك يزعجه التفكير في هذا المصير المحتم، ويؤرِّقه التفكير بفناء الحياة، وزوال الأحياء، وفي رثاء أخت سيف الدولة الحمداني يقول:

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لا اتِّفَاقَ لَهُمْ إلا عَلَى شَجَبٍ، والْخُلْفُ في الشَّجَبِ

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 81.

[2] عبد الخالق، أحمد محمد: **قلق الموت**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (111)، 1987، ص17.

فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ المَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ تَشْرَكُ جِسْمَ المَرْءِ فِي الْعَطَبِ

وَمَنْ تَفَكَّر فِي الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ[1]

ويبيّن أنَّ الموت مصير كل حي، فلم ينج منه أقوى ملوك الأرض وصناديدها، فكل عمران آيل للخراب، ولا دوام لشيء، فالموت نهاية المرء لا مفر منه، ولا بدّ من أنْ يتجرّعه الجميع، يقول:

أينَ الأكاسِرَةُ الجَبابِرَةُ الأُلى كَنَزُوا الكُنُوزَ فَما بَقينَ وَلا بَقوا[2]

وفي هذا البيت يغرف الشّاعر من المعاني الإسلامية، ويسقطها على شعره في الموت، فنسمع صدى قويا لما نطق به القرآن الكريم، وكأنَّه استعار فكرته حول الموت من قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ**﴾[4]. فيؤكِّد الشّاعر زوال العظماء والجبابرة وفناءهم.

ويتّضح أنَّ نظرة الشّاعر إلى الموت نظرة دينية، فهو يرى أنّ كلّ إنسان مهما بلغ من عمره ستصطاده شباك الموت، وسيعود إلى التراب كما خلق منه، وهذه النظرة الدينية العميقة تدلّ على إيمانه بحتميّة الموت وشموليته، وعودة الإنسان إلى ما كان عليه، يقول:

إلى مِثْلِ مَا كَانَ الفَتَى مَرْجِعُ الفَتَى يَعُودُ كمَا أُبْدِي وَيُكري كمَا أَرْمَى[5]

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 224 . 225.

الشجب: الهلاك، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة شجب.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 75.

(3) سورة يس، آية 31.

(4) سورة الأنعام، آية 6.

(5) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 227.

يكري: ينقص، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة كرا.

أرمى: زاد، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة رمي.

ويقرر أنَّ الموت مصير كل حي، ولن يخلد أحد في هذه الدنيا الفانية، فالموت لا يستمع لأماني النّاس، ولا يتفاعل مع عواطفهم، حتى لو ذرف أمامه فيض من الدموع، لن يردعه هذا عن فعله، يقول:

وَما أَحَدٌ يُخَلَّدُ في البَرايا بَلِ الدُنيا تَؤولُ إِلى زَوالِ[1]

ويستغرب من النّاس الذين لا يجعلون الموت واعظا لهم، وعلى الرغم من دفن بعضهم بعضا، إلا أنّهم يبقون غير آبهين بموتاهم[2]، ولا يتَّعظون من الموت وجبروته، فالنّاس تدفن في كلّ يوم عزيزا عليها، ويتأمَّلون الموت للحظات معدودة، وسرعان ما يغفلوه ولا يتذكروه إلا وقت وقوعه، فَيُقدِّمُ الشّاعر النصح والإرشاد للنّاس، من خلال تجاربه وخبرته في الحياة، ويتجلّى ذلك في إثبات أحقيّة الموت وشموليته، يقول:

يُدَفِّنُ بَعْضُنا بَعضاً وتَمْشِي أواخِرُنا عَلى هَامِ الأوَالي[3]

ويجزم أنَّ الحياة لا تخلّد أحدا، حتى وإنْ عمَّر وطال عمره، فالحياة ليست صديقة لأحد، وسيأتي يوم على البشرية جمعاء تفارق فيه الحياة، وإنْ طال أمدها، وسيزول كل إنسان عن هذه الأرض، وسيعلق مصيره وخلوده فيما بعد الموت، وذلك حسب أعماله، فالجزاء من جنس العمل، يقول:

ولوْ جازَ الخُلودُ خَلَدتَ فَرْداً ولكِنْ ليسَ للدّنْيا خَليلُ[4]

وحياة المرء متعلقة بموته، فإنْ قصّرت أو طالت أيّامه لن يخلد على الأرض، وإنّما ستتلاشى أثاره ولو بعد حين؛ لأنَّ الحياة لا تبقى لحي، والموت يحصد النفوس ويسلب الأرواح، وينال من الجميع، يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 145.

(2) ينظر: الشمري، ثائر سمير حسن: **خطاب الموت في شعر المتنبي بين التقليد وإمارة الغايات العليا**، مجلة جامعة بابل (العلوم الإنسانية)، العراق، مج 19، العدد (3)، 2011، ص268.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 150.

(4) نفسه، 3/ 140.

كَثيرُ حَيَاةِ المَرْءِ مِثْلُ قَليلِهَا يَزولُ وباقي عَيْشِهِ مِثْلُ ذاهِبِ[1]

وفي الأبيات السابقة تطغى الروح الإسلامية التي استوحاها الشّاعر من القرآن العظيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾[2].

ويطلب الشَّاعر إلى المحبوبة أنْ لا تكف عن وصله، وأنْ لا تغيب عن ناظريه حتى ينتهز كلّ لحظة من لحظات عشقه لها؛ ذلك لأنَّ الحياة ستمحى أثارها وسيزول معها كلّ مظاهر العشق، يقول:

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هذِهِ الدُّنـ ـيَا فَإِنَّ المُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ[3]

ويستنبط هذه الفكرة من قوله تعالى: ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ...**﴾[4]. ومن هذا المنطلق أكَّد الشّاعر أنَّ الحياة وما فيها من لهو وترف وعشق وأيّام صبا ما هو إلا زائل.

وينظر الشّاعر عبّر التاريخ، ويستذكر جبابرة البشرية وصناديدها؛ ليوضّح أنّ ما من عظيم يفلت من حبال الموت، عندما تقع على المرء، فالنّاس بمثابة قوافل متتابعة في طريق الفناء، يقول:

أينَ الَّذي الهَرَمانِ مِنْ بُنْيَانِهِ مَا قَوْمُهُ مَا يَوْمُهُ مَا المَصْرَعُ

تَتَخَلَّفُ الآثارُ عَنْ أصْحَابِهَا حِيناً وَيُدرِكُها الفَنَاءُ فتَتْبَعُ[5]

وفي هذين البيتين ينهل الشّاعر فكرتهما من القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن من بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ**

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 277.

[2] سورة الرحمن، آية 26 . 27.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 268.

[4] سورة النساء، آية 77.

[5] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 13.

الْوَارِثِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا من قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلاَدِ هَلْ مِن مَحِيصٍ﴾**[2].

ويرى الشّاعر أنَّ الإنسان مهما حاول أن يردّ الموت، فإن الموت سيصله من أضعف الأسباب، ويمثّل على ذلك بالأسد الذي يجابه جيشا قويا دفاعا عن شبله، ولكنّه لا يستطيع أن يحميه من النمل، فالموت لا تعرف طرقه في سلب الأرواح، يقول:

يَرُدُّ أبو الشّبلِ الخَميسَ عنِ ابنِهِ ويُسْلِمُهُ عِندَ الوِلادَةِ للنّملِ[3]

ولكل بداية نهاية، والموت نهاية الحياة، وعلى المرء أنْ يستغلّ كلّ لحظة في الحياة؛ ليتمتَّع بنعيمها، وذلك لأنَّ الحياة رحلة قصيرة سرعان ما يعقبها الموت، إلا أنَّه يريد أنْ يستمتع بلذائذ الحياة قبل أنْ تختفي من أمامه، ويلاحقه شبح الموت، يقول:

انْعَمْ ولَذّ فَلِلأمورِ أواخِرٌ أبَداً إذا كانَتْ لَهُنّ أوائِلُ[4]

ومهما حاول الإنسان أنْ يحمي نفسه من الموت، فلن يفلح في ذلك، وستناله يدُ المنون التي لا ينفع معها الحصون، وعلى الرغم من تشبّثه بالسِّلاح وتسلّحه بالحيطة والحذر، إلا أنَّه لن يستطيع ردع الموت، أو تأخيره على الأقل، وسيقتحم جسده؛ ليسلب روحه، فلا نفع للسلاح في ردِّ الموت، فهو قاس لا يرحم ضعيفا لضعفه، ولا فقيرا لفقره، يقول:

نُعِدّ المَشرَفيّةَ والعَوالي وتَقْتُلُنا المَنُونُ بِلا قِتالِ[5]

وهذا يوافق ما جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾[6].

---

[1] سورة القصص، آية 58.

[2] سورة ق، آية 36.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 175.

[4] نفسه، 3/ 370.

[5] نفسه، 140/3.

[6] سورة النساء، آية 78.

ويتساءل الشّاعر عن سبب كره الموت، فنحن من أصلاب آباء وترائب أمهات أضحوا ميتين، وسننهل من البئر التي شربوا منها[1]، فالنّاس راحلون إلى نهايتهم المحتومة، وما هم إلا تراب سيعودون إليه بعد حين، يقول:

نحنُ بَنُو المَوْتَى فَمَا بالُنَا نَعَافُ مَا لا بُدّ من شُرْبِهِ

تَبْخَلُ أيْدينَا بِأرْوَاحِنَا على زَمَانٍ هيَ من كَسْبِهِ

فَهَذِهِ الأرْوَاحُ منْ جَوّهِ وَهَذِهِ الأجْسامُ مِنْ تُرْبِهِ[2]

والشَّاعر"يذمّ أولئك الذين ألفوا هذه الحياة، وركنوا إليها، وظنّوا أنّ طعم الموت مرّ؛ لأنَّهم جبناء، ولا ينبغي أنْ يجزع الإنسان من الموت"[3]، يقول:

إلْفُ هذا الهَواءِ أوْقَعَ في الأنْـ ـفُسِ أنّ الحِمامَ مُرُّ المَذاقِ

والأسَى قبلَ فُرْقَةِ الرّوحِ عجزٌ والأسَى لا يكونُ بَعدَ الفِراقِ[4]

ويؤكِّد حتميّة الموت وشموليته، ولا يسلم منه أحدٌ حتّى الأنبياء الصالحين، أولياء الله على الأرض لا يفرون منه، يلاقيهم مع أقوامهم فيخطف أرواحهم من أجسادهم، وهذا دليل على قهر الموت لأهل الأرض دون استثناء، ولا طاقة لأحد على تجنبه، فما وجد على هذه الأرض وجد للفناء، والبقاء والخلود لله وحده، ولعلّ الشّاعر يعزي نفسه في هذه الحقيقة الدينية المفجعة للنَّفس البشرية، ويداوي الحالة النَّفسية التي يحدثها الموت في أعماقه، يقول:

ألا إنّما كانَتْ وَفاةُ مُحَمّدٍ دَليلاً على أنْ لَيسَ لله غَالِبُ[5]

---

(1) ينظر: الحديدي، سيد: **المتنبي العبقري الطريد**، د.ط، دار شعاع للنشر والعلوم، حلب، 2006، ص156.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 336. 337.

(3) سلامة: يسري محمد: **الحكمة في شعر المتنبي**، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2009، ص146.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 108. 109.

(5) نفسه، 236/1.

والموت حقيقة إلهية لا رجعة فيها، وهو من سنن الله التي سنَّها على البشرية، وليس باستطاعة أحد الحديث عن تجربته مع الموت، فهو لا يعيد الروح التي انتشلها من الجسد، ولا يوجد من عاد للحياة بعد مداهمة الموت له، ولهذا لا يمكن معرفة أثر فعل الموت بالإنسان، فهو يعرف بالوصف لا بالتجربة، يقول:

فالمَوْتُ تُعرَفُ بالصّفاتِ طِبَاعُهُ لم تَلْقَ خَلْقاً ذاقَ مَوْتاً آيِبَا[1]

وعلى الرغم من قوة المرء، وتملّكه الحياة، وانصياعها لرغباته، وامتثالها لأهوائه، إلا أنَّه يعجز عن دفع المنية عنه، فهي مسيَّرة من عند الله، تلقي بشباكها على أهل الأرض؛ لتتصيّدهم واحدا تلو الآخر، يقول:

ترَكوا الأرْضَ بَعدَما ذَلّلُوها ومَشَتْ تَحتَهُمْ بلا مِهْمازِ[2]

ويوضّح سنَّة الحياة للأحياء فيها، فاجتماع الناس يعقبه تفرقه تودي بهم إلى الهلاك، ولا تنتهي الحياة بهلاكهم، وإنّما تستمر بمن يأتي بعدهم، وهناك من يموت كلّ يوم وهناك من يولد، ولا شك في أنّ كلّ ما تلد الأنثى للموت، ولا دوام لشيء، وتبقى الحياة باستمرار دائم إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها، فتنتهي الحياة ويزول الأحياء فيها، يقول:

على ذا مضَى النّاسُ اجتماعٌ وفُرْقَةٌ ومَيْتٌ ومَوْلُودٌ وقالٍ ووامِقُ[3]

ويجسِّد الموت في صورة السارق، وليس لأحد علم أو معرفة بقدومه، وكيف يعصف بالأرواح ويسرقها من الأجساد، ولا يستطيع أحد التنبؤ بمجيئه، وقد أحسّ به الشّاعر من خلال أثره

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 254.

(2) نفسه، 2/ 290.

مهماز: عصاً في رأسها حديدة يُنخس بها الحمار، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة همز.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 83.

قالٍ: البغض، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة قلا.

وامق: المحبة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة ومق.

في الموجودات، فهو يحيط بالناس من كل جانب، وما هذا إلا دليل على قناعته بحتميّة الموت وشموليته، وفناء الموجودات، يقول:

وما الموْتُ إلاّ سارِقٌ دَقّ شَخْصُهُ يَصولُ بلا كَفٍّ ويَسعى بلا رِجْلِ[1]

وقد يتوهّم بعض الأحياء بخلودهم، إذا لزموا عقر دارهم، وتجنَّبوا معترك الحياة وصعابها، وتجنَّبوا خوض المعارك، وتوقَّفوا عن طلب المعالي تجنّبا للصعاب التي تواجههم في سبيل الحصول عليها، والحقيقة أنّ عمل الإنسان مهما كان في الحياة، لا بدَّ من مصرعه وحلول المنية عليه، ويكشف الشّاعر عن القناع الذي ترتديه الحياة، ويبيِّن أنَّ الحياة لا تدوم لحي، وأنّ الموت فتح بابه أمام البشر، ولن يوصده حتى ينفدوا؛ ليجدوا أنفسهم بين أنيابه، يقول:

وَلَوَ أنّ الحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيٍّ لَعَدَدْنَا أضَلّنَا الشّجْعَانَا[2]

ويوضّح القانون الذي يسير عليه الموت في قبض الأرواح والعصف بها، فالكلُّ يتساوى أمامه، فلا يفرق بين كبير وصغير، ولا بين عزيز وذليل، ولا بين غني وفقير، ولا بين جاهل وعالم، وربما زاد الجاهل على العالم في عمره، فالموت ينال من الجميع، ولا يترك لهم غير الذكر، وبضعة أمتار من الأرض التي سيقطنون في باطنها، ولا يرأف لأحزان النّاس ودموعهم، فهو المصيبة التي لا تُرد ولا تفتدى بشيء، "وإدراك الشّاعر لاستحالة الخلود جعله يتَّخذ من العلماء والأطباء أمثلة وشواهد حيّة، تظهر عجزهم عن مقاومة الموت"[3]، يقول:

يَمُوتُ رَاعي الضّأنِ في جَهْلِهِ مِيتَةَ جَالِينُوسَ في طِبّهِ

وَرُبّمَا زَادَ على عُمْرِهِ وَزَادَ في الأمنِ على سِرْبِهِ[4]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 175.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 372.

[3] الميراني، نوزاد شكر: **صورة العدو في شعر المتنبي: دراسة**، د.ط، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2010، ص125.

[4] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 337.

ويبيّن عَجزَ الأطباء عن وضع عائق أمام الموت، فهو الداء الذي لا شفاء منه، وهو نهاية الحياة، "وبما أنَّ الإنسان يصعب عليه قبول فنائه المطلق الأبدي، فقد حاول اكتشاف ماهية الموت من أجل التغلُّب عليه، إلا أنَّه فشل في محاولاته بما أعيا الحكماء والأطباء حتَّى اليوم"[1]، ولو لم يفارق النّاس بعضهم بعضا لضاقت الدنيا بهم، فيتملَّكها الحي ويتركها الميت رغما عنه، ولولا الموت لما عرفت صفات النّاس وطباعها، فهو يميّز بين القوي والضعيف، وبين الشجاع والجبان، يقول:

وَقَدْ فارَقَ النّاسَ الأحِبّةُ قَبْلَنَا وَأعْيَا دَوَاءُ المَوْتِ كُلَّ طَبيبِ

سُبِقْنَا إلى الدّنْيَا فَلَوْ عاشَ أهْلُها مُنِعْنَا بهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُهُوبِ

تَمَلّكَهَا الآتي تَمَلُّكَ سَالِبٍ وَفارَقَهَا المَاضِي فِراقَ سَليبِ

وَلا فَضْلَ فيها للشّجاعَةِ وَالنّدَى وَصَبْرِ الفَتى لَوْلا لِقاءُ شَعُوبِ[2]

وعلى الرغم ممّا اكتسبه الإنسان من مال، وجاه، ومناصب، لن يفيده شيء أمام جبروت الموت وسطوته، ولن يبعده أو يؤخر قدومه؛ لأنَّه يأتي على غفلة دون إنذار سابق، وهو محيط من كل الجوانب، ومقدّر من عند الله، وقدر الله إذا جاء لا يؤخر، ومن لم يعِ هذه الحقيقة فهو أحمق، يقول:

فَالمَوْتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفائِسٌ وَالمُسْتَغِرُّ بِمَا لَدَيْهِ الأحْمَقُ[3]

وهذه الفكرة مأخوذة من القرآن الكريم، فالشّاعر استوحى معنى هذا البيت وفكرته من قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[4].

---

[1] الميراني، نوزاد شكر: **صورة العدو في شعر المتنبي: دراسة**، ص124.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 175/1.

شعوب: المنية، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة شعب.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 76.

[4] سورة الجمعة، آية 8.

ويستسلم الشّاعر للموت الذي يسطو على الجميع، ويضعف وتخور قواه أمامه، فهو جبار عنيد لا يعوقه شيء عن مراده، وما هو إلا كأس دائرة يتجرعها جميع الخلق، ويتعجَّب من جزع الناس وخوفهم من الموت الواقع لا محالة، وبهذه الحقيقة يحاول أنْ يخفِّف من أثر وقع الموت على نفسه، يقول:

لا بُدّ للإنْسانِ من ضَجعَةٍ لا تَقْلِبُ المُضْجَعَ عن جَنبِهِ

يَنسى بها ما كانَ مِن عُجْبِهِ وَمَا أذاقَ المَوْتُ من كَرْبِهِ[1]

ويتّضح أنَّ الشَّاعر متشرب من الأفكار الدينية التي رسخت في عقله، فشعره المتعلّق بالموت، يوحي بإيمانه بحتميَّته، ويتَّضح ذلك من خلال اقتباسه المعاني الدينية، والأفكار الإسلامية التي وردت في جوانب مختلفة من شعره، فكشفت عن رؤيته التي تجلَّت في إقرار الموت وأحقيّته على الخلق.

ومثلما عرض الباحث نظرة الشَّاعر إلى الموت من الناحية الدينية، سيتطرق إلى الحديث عن الموت بوصفه دعوة إلى الفروسية، خاصة أنَّ المتنبّي فارس خاض ساحات الوغى بلسانه وسيفه، فكيف برزت فروسيته في مواجهة الرَّدى الذي تجلَّى في غمار الحرب؟

ثالثا: الموت دعوة إلى الفروسية:

دعا كثير من الشُّعراء في شعرهم إلى نبذ المخاوف، واقتحام الصعاب في سبيل نيل حياة ملؤها العزّة والكرامة، وما دام الموت واقعا لا محالة، فليكن موتا معزًّا لصاحبه لا مذلا، ولهذا خلَّدت صفحات التاريخ القادة الأبطال الذين اقتحموا الأهوال، وجازفوا بحياتهم دون خشية ورهبة في سبيل تحقيق غاياتهم السامية.

ولقد تغنَّى الشُّعراء بشجاعة المقاتلين وقوتهم وصلابتهم، فهم ودَّعوا الحياة لا مبالين بها، واستقبلوا الموت ببسالة دون رهبة، وضحُّوا بأرواحهم في سبيل تحقيق ما آمنوا به، وتركوا آباءهم،

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 336.

وأمهاتهم، وأبناءهم، وكلّ عزيز عليهم؛ مدافعين عن دينهم ومعتقداتهم، حامين لوطنهم من كل عدو، فأظهروا بطولاتهم وتضحياتهم، وبرزت لديهم قيم الفروسية التي تربوا عليها، ونشؤوا في ظلالها، فخلَّدوا أسماءهم في ذاكرة البشر على مر العصور، وأصبحوا قدوة يحتذى بهم، ويضرب بهم المثل في القوة والشجاعة والبطولة، ولم تنته حياتهم بموتهم، وإنَّما كان لهم بقاء الذِّكر الذي خلَّده الشّعر على مرِّ الزّمان، "وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها، بأنْ تعتمد في ذلك على الشّعر الموزون، والكلام المقفى، وكان ذلك هو ديوانها"[1].

ولأنَّ للفروسية مكانة سامية عند العرب، غدت بمثابة معين الماء الذي يرد إليه الشُّعراء، فيستقوا منه ألفاظهم ومعانيهم الممزوجة بالبطولة والشجاعة، ومما أدّى إلى ظهور الفروسية العربية قبل الإسلام، تنافس القبائل فيما بينها على أماكن الماء والكلأ[2]، والمتنبّي رسخت فيه خصال الفروسية، فانعكست على شعره، وأضفى عليها تعبيرا صادقا، فتعدّدت الموصوفات الحربية في شعره، وهو ميال لنظم شعر يمتزج بألفاظ الحرب، فيرى في ذلك نصرا مؤزرا ومجدا معظما.

وقد سار الشّاعر على مبدأ القوة في الحياة، فهي وسيلته للوصول إلى ما ينشده، والقوة "لا تعني بالضرورة حبّ السيطرة، والرغبة في السّيادة، والنزوع نحو التسلّط، بل هي تعني القدرة على التحكم في الذات، وإمكانية مواجهة المواقف بشجاعة، والمخاطرة بالنّفس في سبيل تحقيق بعض القيم"[3]، والشّاعر لم يغفل عن طلب المجد والعزّة والسّيادة، فرأى في القوة طريق توصله إلى المجد والمعالي، "ومثل هذه الفلسفة تحدد الطريق التي يجب أن تسلك وهي طريق الحرب"[4].

ويحثُّ الشّاعر على الشجاعة والإقدام في ساحات الوغى، ويطلب من المقاتلين أنْ يضحّوا بأرواحهم، ويقابلوا الموت بجرأة وشجاعة، ويدعو إلى ترك الذلّ والمهانة، وإنْ كانت مقترنة بجنان الفردوس، وطلب العزّ ولو كان في جهنم، وهذه مبالغة يضفيها ليبيّن مدى إقدامه، وشجاعته، وفروسيته، ورمي نفسه نحو موت فاغر فاه، ثمّ يقارن بين كلّ من الجبان والشجاع على أرض

---

[1] الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **الحيوان**، تح: محمد هارون، ط2، 1965، 72/1.

[2] ينظر: المكتب العالمي للبحوث: **الحب عند العرب: دراسة أدبية تاريخية**، د.ن، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص83.

[3] إبراهيم، زكريا: **مشكلة الحياة**، ص216.

[4] شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، د.ط، دار المعارف، القاهرة، 1964، ص395.

المعركة، فالجبان يخشى من هول الرَّدى وتضارب القنا، ويجبن تشبّثا بالحياة، على الرغم من أنَّ الجبن لا يزيد العمر ولا يقلله، وربما يلقى الجبان حتفه قبل الشجاع، والشجاع حينما يقاتل يعزز في قلبه الإيمان بحبِّ الموت، فلا ترهبه غزارة الرماح المتساقطة عليه؛ لأنَّه يعلم أنَّ بطولته وبسالته التي أظهرها ستؤول به إلى الخلود، يقول:

لا كَما قد حَيِيتَ غَيرَ حَميدٍ وإذا مُتَّ مُتَّ غَيْرَ فَقيدِ

فاطْلُبِ العِزّ في لَظَى وَذَرِ الذّ لّ وَلَوْ كانَ في جِنانِ الخُلُودِ

يُقْتَلُ العاجِزُ الجَبَانُ وقَدْ يَعـ جِزُ عَن قَطْعِ بُخْنُقِ المَولودِ

وَيُوَقَّى الفَتى المِخَشُّ وقَدْ خوّ ضَ في ماءِ لَبّةِ الصّنْديدِ[1]

ويكشف عن آلية الموت في قبض الأرواح والعصف بها، ويرى أنَّه لا يفرق بين شجاع وجبان، ولهذا فإنّه يحثّ على التحلي بقيم الفروسية، لأنَّ الشجاعة والإقدام على المهالك لا تعجّل ولا تؤخر الموت، يقول:

وَقد يترُكُ النّفسَ التي لا تَهابُهُ وَيَخْتَرِمُ النّفسَ التي تَتَهَيّبُ[2]

ويضفي صورة تعبيرية تجسِّد الجبن والخوف في الحيوانات الضعيفة الهزيلة، وهذه الصورة منفرة للشّاعر، يريد أنْ ينتزعها من ذاته العزيزة التي لا تقبل الذلّ والهوان، ثمّ يرسم صورة أخرى تجسيدا لنفسه القوية الراغبة بالرّدى في الحرب، وقد غمرتها الدماء المنصبّة عليها من الرماح، فمن خلال هذه الصورة يبدو ذا عزّة ورفعة، يسعى للمكانة المرموقة ناشدا المجد، يقول:

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نفْسُ وَاتْرِكِي حِياضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشّاء وَالنِّعَمِ

إنْ لَمْ أَذُدْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً فَلاَ دُعيتُ ابنَ أُمِّ المَجدِ وَالكَرَمِ[3]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 46.

المخش: ماض جريء على هَوَى الليل، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة خشش.

لبة: وسط الصدر والمَنْحَر، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة لبب.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 310.

[3] نفسه، 160/4.

ويؤكِّد أنَّ الموت في العزّ أفضل من العيش الرذيل، ولا يحسد الذليل على عيشه إلا من هو أذلّ منه، ورضي على نفسه الهوان، يقول:

ذَلّ مَنْ يَغْبِطُ الذّليل بعَيشٍ رُبّ عَيشٍ أخَفُّ منْهُ الحِمامُ[1]

والعيش الذليل عنده أشدُّ وقعا من الموت في نفسه، فيطلب الموت بعزَّة وكرامة ورفعة، بدلا من العيش الذليل المهان، فلم يعتد الشّاعر على الخضوع والانقياد، ولهذا يستحلي مذاق الموت في قوله:

وَعِنْدَها لَذّ طَعْمَ المَوْتِ شَارِبُهُ إنّ المَنِيّةَ عِنْدَ الذّلّ قِنْديدُ[2]

وبما أنَّ الموت محتوم، فإنَّ الشّاعر يبغض هَوان الإنسان خشية الموت الواقع لا محالة، فلماذا يحرص الإنسان على الحياة الفانية؟ فالموت مصير كلّ حي، وإنْ تعددت أسبابه، يقول:

غَيرَ أنّ الفَتى يُلاقي المَنَايَا كالِحَاتٍ وَلا يُلاقي الهَوَانَا

وَإذا لم يَكُنْ مِنَ المَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ العَجْزِ أنْ تكُونَ جَبَانَا[3]

وما دام الموت واقعا لا محالة، فإنَّ الشّاعر يحثُّ على الشجاعة والإقدام ونبذ المخاوف، وينهى عن الجبن، ولا يريد الحرص على حياة مصيرها الفناء، وهو لا يصبر على الذلِّ والهوان حتَّى لو كلَّفه ذلك حياته، فهو على استعداد لورود الموت، واقتحام الصعاب التي قد تسبب هلاكه، يقول:

كَثيرُ حَيَاةِ المَرْءِ مِثْلُ قَليلِهَا يَزولُ وباقي عَيْشِهِ مِثْلُ ذاهِبِ

إلَيْكِ فإنّي لَسْتُ ممّنْ إذا اتّقَى عِضاضَ الأفاعي نامَ فوقَ العقارِبِ[4]

---

(1) نفسه، 4/ 216.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 147.

قنديد: عصير عنب، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة قند.

(3) نفسه، 4/ 372.

(4) نفسه، 1/ 277 . 278.

ويجسِّد هيئته بصورة ملك الموت قابض الأرواح، فيسير في ظلام دامس، ولا يكترث لبعد المسافات، ولا يهاب الرّدى على نفسه، وكيف للإنسان الذي جسَّد نفسه بصورة الموت أنْ يخشى منه؟ فهو يرى أنَّ الإقدام على الموت في محاربة الأعداء فيه شجاعة وعزّة، حتَّى وإنْ سلبت منه ليالي عمره ووافته المنية، فيطيب له الموت عزًّا، ويستقبح العمر المديد الذي يلازمه فيه الذلّ والهوان، يقول:

فهوَ أمضَى في الرّوْعِ من مَلَكِ الموْ تِ وأسرَى في ظُلمةٍ من خيالِ

ولحَتْفٍ في العِزّ يَدْنُو مُحِبٌّ ولعُمْرٍ يَطُولُ في الذّلّ قالِ[1]

وَيُؤثِر الموت في ظلِّ الفروسية تحت وقع الحسام على العيش المبتذل والمحتقر، وقد كان يبجِّل الحرب ويمجّدها، ويراها طريقا آخر للعزّ والسؤدد، وقد جعل من الموت وجها من أوجه الفروسية، فهو ينظر إلى الأمور بعين الفارس الذي يرى الموت في الحرب فروسية تعادل الحياة، بل يتعدى ذلك ليرى الموت ألذّ ما تم إنتاجه وهو العسل، يقول:

وَإلاّ تَمُتْ تَحْتَ السّيوفِ مكرَّماً تَمُتْ وَتُقاسي الذُّلَّ غَيرَ مُكَرَّمِ

فَثِبْ وَاثِقاً باللهِ وِثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى المَوْتَ في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِ[2]

وهو يحثُّ على طلب المعالي بالإقدام والقتال في سبيل الحصول عليها، فلا يقطف ثمار الدنيا إلا من ناضل وقاتل، لا من لزم عقر داره، وتجنب خوض المعارك، فالشّاعر لا يبالي بلقاء المنية في أثناء سعيه وراء المجد والمعالي، يقول:

فالمَوْتُ أعذَرُ لي والصّبرُ أجملُ بي والبَرُّ أوْسَعُ والدّنْيا لِمَنْ غَلَبَا[3]

ويطيب عيشه في خوض الشَّدائد والصِّعاب، فلا يهنأ إلا باستعمال السيف، فهو فارس ترسَّخت فيه قيم الفروسية، إذ إنَّ شخصية الفارس تملي عليه أنْ يكون مقداما، عزيزا، لا يرضى

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 310.

(2) نفسه، 4/ 150.

(3) نفسه، 2/ 249.

بالضَّيم، "فهو دائما متوثب، شديد التحفّز، يرقب أعداءه بكثير من التوجّس والبغض، ويرتقب اللحظة الملائمة لينقضَّ عليهم، ويسلبهم حياتهم مزهوا بمرأى دمائهم المسفوكة، وقد سالت بغزارة في مشهد دموي قان"[1] ، وهذا بدا جليا في قوله:

وَخُضرَةُ ثوْبِ العيش في الخضرةِ التي أرَتكَ احمرارَ المَوْتِ في مدرَجِ النّملِ[2]

ويكمن فخر الإنسان واعتزازه بذاته في قدرته على دفع الجور، بكل ما لديه من قوة وعزيمة، ويتجلّى ذلك في رفض الضيم ومجابهته في أثناء تحقيق غاياته التي تؤرق تفكيره وتسلب منامه، فلا فخر لمن رضي بالذلّ والهوان ، يقول:

لا افْتِخارٌ إلاّ لمَنْ لا يُضامُ مُدْرِكٍ أوْ مُحارِبٍ لا يَنَامُ[3]

ونعيم الحياة ورغدها يزيّنها ويجمّلها للنفوس، فيزداد التشبّث بها، وترضى العيش الذليل، وتواصل الهرب خوفا من القتل، وتقبل على نفسها العار، لتحيا حياة ذليلة محقَّرة يكللها الهوان، يقول:

تَغُرُّ حَلاواتُ النّفُوسِ قُلُوبَهَا فتَختارُ بَعضَ العَيشِ وَهْوَ حِمامُ

وَشَرُّ الحِمَامَينِ الزّؤامَينِ عِيشَةٌ يَذِلُّ الذي يَختَارُها وَيُضامُ[4]

وتبرز بطولة الشّاعر وبسالته في إقدامه المتواصل على ساحات الوغى، فهو يقدم على الأهوال دون رهبه، كالسَّيل الجارف الباعث لما أمامه إلى الهلاك، يقول:

تَمَرّسْتُ بالآفاتِ حتى تركْتُهَا تَقولُ أماتَ المَوْتُ أم ذُعِرَ الذُّعْرُ

وأقْدَمْتُ إقْدامَ الأتيّ كأنَّ لِي سِوَى مُهجَتي أوْ كَانَ لِي عِندَهَا وِتْرُ[5]

---

[1] ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص 119.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 280.

مدرج: ممر الأشياء على الطريق، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة درج.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 215.

[4] نفسه، 4/ 111.

[5] نفسه، 2/ 253.

ويصرِّح في حبِّه للموت في ساحة الوغى، فهو فارس محب للقتال اعتاد الطعن بالقنا، وموته في الحرب ما ترغب به نفسه، فهو يشتهي أنْ يموت محاربا في سبيل تحقيق مراده، يقول:

فَمَوْتِي في الْوَغَى أَرَبِي لِأَنِّي رَأَيْتُ الْعَيْشَ في أَرَبِ النُّفُوسِ[1]

ويعلن أنَّ الحروب وما فيها من دماء تجري في شراييه، فقد لازمها معظم حياته، وتتجلَّى متعته في الحياة بالحرب والنزال، والطعن والقتال، وهذه قيم الفروسية الباعثة بدورها إلى الموت، يقول:

تَرَكْنَا لأَطْرَافِ القَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إلاّ بِهِنّ لِعَابُ[2]

وتتجلّى مظاهر الشَّجاعة والفروسية من خلال ارتباط الشَّاعر بالأدوات الحربية والقتالية، وامتلاكه لها تعكس شخصيته في ظلّ المعركة، فهو مندفع نحو الردى يجابه الأعداء، بكل ما أوتي من قوة وشراسة، غير آبه للموت، يقول:

وَذَرْنِي وَإِيّاهُ وَطِرْفِي وَذابِلِي نكنْ واحداً يلقى الوَرَى وَانظرَنْ فعلي[3]

ويبيِّن أدوات الحرب التي تستخدم في المعارك، كالسُّيوف، والرماح، والخيول، وكلّها أدوات قتالية تفتك بالنّفوس وتودي بها إلى الهلاك، ويوضّح أنَّ الذي رضي بالجور وقبل العيش الذليل ليس بحاجة إلى هذه الأدوات، يقول:

إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بِذِلّةٍ فَلا تَسْتَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانِيَا

وَلا تَستَطيلَنّ الرّماحَ لِغَارَةٍ وَلا تَستَجيدَنّ العِتاقَ المَذاكِيَا[4]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 301.

[2] نفسه، 1/ 318.

[3] نفسه، 3/ 281.

[4] نفسه، 4/ 417.

المذاكيا: الخيل التي أتى عليها بعد قُروحها سنة أو سنتان، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة ذكا.

ويرى أنَّ المجد يحصل عليه في أرض المعركة، والسيوف تضرب بعضها بعضا، فالسّيف وسيلته الأمثل للوصول إلى أسمى الأمور وأعلاها،"فالرأي، والمعرفة، والحكمة، والكتب، هذه كلها خدم المجد، والسؤدد، وآلات الملك والاستعلاء"[1] يقول:

حَتّى رَجَعْتُ وَأَقْلامِي قَوَائِلُ لي المَجْدُ للسّيفِ لَيسَ المَجدُ للقَلَمِ[2]

وهو شجاع مقدام، لا يهاب ولوج الصِّعاب واقتحام الأهوال، ولا يقبل الضَّيم، ولا يتنازل عن حقه، فيطلب حقَّه بالرماح والسيوف، ويخبر أنَّ أصدقاءه من فرسان العرب الذين لا يخلعون لثامهم؛ لكثرة تجاربهم الحربية، وهو فارس صنديد مثل أصدقائه، يقول:

سَأَطْلُبُ حَقّي بِالقَنَا ومَشَايخٍ كأنّهُمُ مِنْ طُولِ مَا التَثَمُوا مُرْدُ[3]

وما يدفع الشّاعر لمفارقة أهله وأحبابه طلب العلا، فهو مغامر يطمح للمعالي، ويمتنع عن رغدِّ الحياة ومتعها؛ ليتابع دربه إلى العزّ والمجد والمعالي، وتجدر الإشارة إلى أنَّه يختار الناقة الصلبة والفرس الطويلة ركابا له، فهو يدلل على فروسيته في الوصول إلى العلا، وعندما يرى سيفه ذا الرونق الجميل، فإنَّه يتذكر الفتيات الناعمات الجميلات اللواتي كنّ معه بدلا من السيف، إلا أنَّه آثر الارتحال عنهن بسيفه في سبيل تحقيق العلا، يقول:

لَوْلا العُلى لم تجُبْ بي ما أجوبُ بهَا وَجْنَاءُ حَرْفٌ وَلا جَرْداءُ قَيْدودُ

وَكَانَ أطيَبَ مِنْ سَيفي مُضَاجَعَةً أشْبَاهُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأمَاليدُ[4]

---

[1] العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ص212.

[2] نفسه، 4/ 291.

[3] نفسه، 2/ 92.

مرد: كثير الردّ والكرّ، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة ردد.

[4] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 140.

وجناء: ناقة تامة الخلق غليظة لحم الوَجْنةِ صُلبة شديدة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة وجن.

حرف: الضامرة الصلبة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة حرف.

جرداء: فرس قصير الشعر، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة جرد.

قيدود: طويلة العنق في انحناء، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة قود.

الغيد: المرأة المتثنية من اللين، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة غيد.

الأماليد: الأملودُ من النساء: الناعمة المستوية القامة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة ملد.

والشَّاعر لا يفزعه الموت، وعند اشتداد المعركة، وانتشار نقعها، لا يولي هاربا، فيختار الموت بدلا من الهرب؛ لما يلحقه من عار، فيلقى المنية بعزّة وكرامة، ويمقت الهروب من أمامها، وهو فارس يذود عن عرضه بجلده، فيطعم جلده إلى السيوف والرماح على أن لا يُطال عرضه بعار، يقول:

يَحِلُّ القَنَا يَوْمَ الطّعَانِ بعَقْوَتي فأحرِمُهُ عِرْضِي وَأُطْعِمُهُ جلدي[1]

ويعلن أنَّ الوصول إلى المعالي والمجد لا يكون إلا بحدِّ السيف، فالمال لا يوصل المرء للملك والسّلطان، فالسيف الوسيلة الموصلة للمجد، والمنزلة الرفيعة، والمكانة السّامية، وإنْ قتل المرء محاولا وصوله المعالي، كان السيف له داء، وإنْ وصل إلى مراده كان له دواء، يقول:

أأطرَحُ المَجْدَ عَنْ كِتْفي وَأطْلُبُهُ وَأتْرُكُ الغَيثَ في غِمْدي وَأنْتَجِعُ

وَالمَشْرَفِيّةُ لا زَالَتْ مُشَرَّفَةً دَواءُ كلّ كَرِيمٍ أوْ هيَ الوَجَعُ[2]

ويظهر في مدحه سيف الدولة الحمداني شجاعته وبطولاته في المعارك التي خاضها، والبلاد التي فتحها، فلا يعجزه شيء، وهو في مسيره وفتحه المتتابع للبلاد، كالموت الذي لا يكتفي بحصاد بعض الأرواح، وإنّما يواصل عصفه بها دون توقف، والشّاعر يحثُّ على اتخاذ ممدوحه قدوة في الشَّجاعة والبسالة، يقول:

لا يَعْتَقِي بَلَدٌ مَسْرَاهُ عَنْ بَلَدٍ كالمَوْتِ لَيْسَ لَهُ رِيٌّ وَلاَ شِبَعُ[3]

ويبيِّن أنَّ الفرسان الشُّجعان لا يهابون من وقع الرماح والتحام السيوف، وإنَّما يخشون أنْ ينعتوا بالجبن، فلا يرهبهم الموت؛ لأنَّ موتهم في طلب المجد والرفعة والعزَّة من أسمى الأمور، التي تزيدهم شرفا ومكانة بين الناس، فهم كالأقمار التي لا تكتمل إلا باستنفاد جميع أطوارها،

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 163.

العقوة: ما حول الدّار، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة عقو.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 332.

[3] نفسه، 2/ 333.

وكأنَّ الشّاعر يشير إلى أنَّ اكتمال الفرسان في الوغى يكون بموتهم –بوصفه طورهم الأخير– دفاعا عن أنفسهم، يقول:

وإذا أشفَقَ الفَوارِسُ مِنْ وَقْـ عِ القَنَا أشفَقوا مِنَ الإشْفاقِ

كلُّ ذِمرٍ يزْدادُ في الموْتِ حُسناً كَبُدورٍ تَمامُها في المُحَاقِ[1]

ويرسم الشّاعر صورة أخرى لفارس المعركة، فيرى أنَّ شَعر الفارس لا يكون جميلا إلا إذا انسدل على ظهره يوم الحرب استعدادا للمعركة، فيسقي رمحه من دماء الأعداء، يقول:

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ حَتّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَينِ يَوْمَ القِتالْ

عَلى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يَعُلّهَا مِنْ كُلّ وَافي السِّبَالْ[2]

ويحثُّ على تجسيد قيم الفروسية في الصغار قبل أنْ يكبروا، فإن تعوَّد المرء على ورود المهالك، وولوج الصِّعاب، فلن يجد عائقا في سيره أمام مراده، يقول:

إذا اعتادَ الفَتى خوْضَ المَنايا فأهْوَنُ ما يَمُرّ بهِ الوُحُولُ[3]

والوطن لمن دافع عنه، وضحَّى بنفسه من أجله، ولهذا فإنَّه ملكٌ لمن حضر النزال، وشهد مواقع القتال، وبادر إلى الطعن والنضال في سبيل حمايته، وربما لقي حتفه في أثناء دفاعه عن أرضه ووطنه، لا لمن تكاسل عن أداء واجبه في حمايته، وتقاعس عن المواجهة في الحرب، ويتحدد حقّ المواطن فيه بناء على ما قدمه من أعمال وبطولات ثورية في سبيل وطنه،"فهؤلاء

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 106. 107.

(2) نفسه، 3/ 279.

الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة وفر.

الضفرين: كل خُصلة من الشعر على حدتها، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة ضفر.

يعلّها: الشربة الثانية، وقيل: الشرب بعد الشرب تباعا، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة علل.

السّبال: مقدّم اللحية خاصة، وقيل: هي اللحية كلها بأسرها، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة سبل.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 138.

الفرسان خاضوا الحروب، وصبروا على المكروه، ولم يميلوا إلى الدنيا، وينكصوا عن الحرب وتوهب لهم الحياة، وينالوا المجد والجاه وتدول لهم الدّول"[1]، يقول:

فإنْ تَكُنِ الدّوْلاتُ قِسْماً فإنّهَا لِمَنْ وَرَدَ المَوْتَ الزّؤامَ تَدُولُ

لِمَنْ هَوَّنَ الدُّنْيَا عَلَى النَّفْسِ سَاعَةً وَلِلبِيضِ فِي هَامِ الكُمَاةِ صَلِيلُ[2]

ويعطي للسّيادة مفهوما آخر عما كانت عليه من تملّك نعيم الدنيا، وما فيها من إمارات وقصور وسلطان، وإنَّما السّيادة لديه في من يقدّم نفسه تضحية وفداء في الحرب، من أجل المبدأ الذي آمن به، يقول:

لَوْلا المَشَقّةُ سَادَ النّاسُ كُلُّهُمُ الجُودُ يُفْقِرُ وَالإقدامُ قَتّالُ[3]

والموت واحد مثل العمر، والإنسان لا يعيش في هذه الدنيا مرتين، ولهذا فإنَّه يحثُّ على المغامرة للوصول إلى أسمى الأمور وأعظمها، وبما أنّ الموت كأس دائرة يرتشف منه جميع الخلق، فعلى الإنسان أنْ لا يجزع في طلب المعالي مادام الموت واحدا يتساوى في أصغر الأمور وأعظمها، يقول:

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومِ فَلا تَقْنَعْ بما دونَ النّجومِ

فطَعْمُ المَوْتِ في أمْرٍ حَقِيرٍ كطَعْمِ المَوْتِ في أمْرٍ عَظيمِ[4]

وتتجلَّى حكمة الشّاعر في الحديث عن الفروسية والشجاعة في صورة الإنسان الأبي الذي يعيش في عزّة وكرامة، وَيُؤثِر الموت طعنا بالرماح على أنْ ينقاد ويخضع ليحيا حياة محقَّرة مبتذلة، وبهذا يكسب النصر والمجد، ويخلّد ذكره ليضرب به المثل في الشجاعة والقوة، فيغدو قدوة يقتدي الناس به، يقول:

---

[1] الدسوقي، عبد العزيز: **في عالم المتنبي**، ط2، دار الشروق، بيروت، 1988، ص62.

[2] نفسه، 3/ 231.

[3] نفسه، 3/ 406.

[4] نفسه، 245/4.

عِشْ عزيزاً أوْ مُتْ وَأنتَ كَرِيمٌ بَينَ طَعْنِ القَنَا وَخَفْقِ البُنُودِ[1]

وجملة القول إنَّ المتنبّي فارس خاض غمار الحروب واصطلى بنارها، فانعكس ذلك على شعره بشكل جليّ نابع عن تجربة عاشها في حياته، وهو من الشُّعراء الذين تغنّوا بالفروسية في شعره، ما يعكس رؤيته كفارس في ظلّ المعركة، وقد أدرك أنَّ الموت بشجاعة وبسالة في ساحة الوغى يعطي صاحبه مكانة مرموقة تمنحه الخلود بين الناس، واستقبح الجبناء الذين يختبؤون في جحورهم في أثناء القتال، فيهربون من المعركة مذعورين؛ خشية على أرواحهم المتشبّثة بالحياة الفانية، فالشّاعر يبجِّل ويمجِّد الشجاع الذي يلقى الردى دون رهبة، ويسعى نحو الصّعاب طلبا للمجد والعزّ والمعالي، ويحتقر الجبان الذي رضي بالحياة الذليلة المهانة.

رابعا: الحبّ والموت:

هناك ارتباط وثيق بين الحبّ والموت، فالحب يخفف عن الإنسان ما يلاقيه من مصائب ورزايا في حياته، فينسى آلامه وأحزانه وأوجاعه، ولا يشغل الموت حيّزا كبيرا في تفكيره، وفي المقابل فإنّ فقدان الحب وتلاشيه يؤدي إلى الإحساس بالضياع والقلق، ويشغله التفكير بالموت، ومثلما يتفاءل الإنسان بالحبّ ويستحلي الحياة بوجوده، يتشاءم من الموت وينفر منه؛ لما يمثّله من فناء وزوال للأحياء.

وفي غزل الشّعراء يَرِدُ الموت واضحا، ويبدو محببا إلى نفوسهم ولاسيما عندما يخفق الشّاعر في وصال محبوبته، فيؤلم ذلك قلبه ويحزنه، ويصيبه اليأس والإحباط اللذان يجعلانه يتمنَّى الموت، والمتنبّي من الشّعراء الذين مزجوا بين الحبّ والموت، فجاء تعبيره في هذه العلاقة نابعا من الحزن الذي ألمّ به، وحزنه هذا ناتج عن غياب المحبوبة عن ناظريه وهجرها له.

ويرى الشّاعر الموت في رحيل المحبوبة عن الديار التي كانت تعجّ بالحياة والحيوية والنشاط أثناء وجودها، وأضحت مقفرة شاحبة يجول فيها الموت، وقد "بدت من خلالها المرأة معادلا للتجدد والحركية؛ فهي الحياة والأمل الذي يلاحقه الشّاعر، ويسعى إليه"[2] ، ومن هذا المنطلق يتَّضح أنّ

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 45.

[2] ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص189.

الشّاعر يرى في المرأة بريق الحياة ولمعانها، وفي غيابها يرى الحياة وقد أطفئت أنوارها وزالت بهجتها ورونقها، وتوسّطها الموت الذي يكبت على أنفاس الشّاعر في ظلّ غياب المحبوبة، وكأنّه يبيّن أنّ رحيل العمر يتجسّد في رحيل المرأة، يقول:

لَيسَ القِبابُ على الرّكَابِ وَإنّمَا هُنّ الحَيَاةُ تَرَحّلَتْ بسَلامِ[1]

ويصرّ الشّاعر أنّ المحبوبة معادلٌ للموت في هجرها له، ويعبّر عن ذلك بأساليب فنّية وإبداعية، خرجت من إحساسه المرهف تجاه المحبوبة، فصوّر فراقها الذي ترك أثرا واضحا في نفسيته، وعبّر عن هذا الأثر بالمرض الذي ألمَّ به وأتعبه، وأنّ وصال الهجر اقترب منه كما يقترب المرض من الإنسان المُعافى، وهذه الحالة المرضية التي تعود إلى الشّاعر إثر هجران المحبوب، كالحالة الكونية في السماء، حينما يعود الهلال محاقا، والمحاق هلالا وهكذا الشّاعر، قرب المحبوبة إليه كظهور الهلال، وانقطاعها عنه كالمحاق، يقول معبّرا عن ذلك:

صِلَةُ الهَجْرِ لي وهَجرُ الوِصالِ نَكَساني في السُّقمِ نُكسَ الهِلالِ

فَغَدا الجِسْمُ ناقِصاً والذي يَنْـ قُصُ مِنْهُ يَزيدُ في بَلْبَالي[2]

وقد جعل الفراق القائم بينه وبين المحبوبة، كالفراق بين الجفن وموضع النوم، وهذا تعبير جزل، يدلل بأنّ الفراق سلب منه النوم الذي يُشعره بالراحة، يقول:

أبْلى الهَوَى أسَفاً يَوْمَ النّوَى بَدَني وَفَرّقَ الهَجْرُ بَيْنَ الجَفنِ وَالوَسَنِ[3]

وتبدو جدلية الحبّ والموت جلية في شعره، فهو يسقط على شخصيته صورتين متماثلتين في العلاقة بين الحب والموت، أمّا الصورة الأولى، فتعكس ضعف الشّاعر وقلة حيلته، وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه أمام كمد العشق ولهيبه، والثانية تظهر قوّته وشجاعته في معترك

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/ 121.

القباب: القبة من البناء، وبيت مقبب: جُعِلَ فوقه قبة، والهوادج تُقبب، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة قبب.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 309.

(3) نفسه، 4/ 317.

الوسن: ثقلة النوم، وقيل: النعاس، وهو أول النوم، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة وسن.

الحرب، وكلتا الصورتين أدَّى به إلى الهلاك، لكنَّه أكَّد هلاكه في الهوى، إلا أنَّه في أثناء القتال أكثر بسالة وقوة واستطاعة في ردِّ الموت من حوله، فهو في ظلّ الحبّ يصرعه الموت، وفي ظلّ الحرب يصارع الموت دون خشية، يقول:

وَإنّي لمَمنُوعُ المَقاتِلِ في الوَغَى وَإن كُنتُ مَبذولَ المَقاتِلِ في الحبّ[1]

ويجسّد الشّاعر صورة الحبّ والموت في علاقات ذات أوجه متعددة، تارة بين صورة العاشق المتماهية في المقتول، وتارة أخرى في صورة الدمع المنهمر من عاشق ذاق لهيب الحبّ وحرارة الوجد، وهذه الصورة تقابل صورة الفارس المضرَّج بالدماء دفاعا عن مبادئه، وقد ربط بين اشتياق العاشق لمعشوقته، وبين اشتياق الفارس للموت في سبيل تحقيق أهدافه، يقول:

لا تَعْذُلِ المُشْتَاقَ في أشْواقِهِ حتى يَكونَ حَشاكَ في أحْشائِهِ

إنّ القَتيلَ مُضَرَّجاً بدُمُوعِهِ مِثْلُ القَتيلِ مُضَرَّجاً بدِمائِهِ[2]

وفي هذين البيتين يبدو أنّ الشّاعر في صراع داخلي، وهذا الصراع يأخذ قطبي الحبّ والموت، وذلك حين يستحضر الشّاعر وقع الموت وأثره في أوقات سرور الروح بوصال المحبوبة[3].

ويعبِّر الشّاعر عن اكتوائه بنار الهوى التي يراها بركانا هائجا في صدره تنبعث الحمم منه، ويعجب من كل من يموت دون عشق، ويعذر العشاق فيما يظهرون من الحزن، فقد علم أنّه مذنب في لومهم، حتى لاقى مثل ما لقوا عقوبة وجزاء[4]، فالشّاعر يحسد من لم يتذوق طعم

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/ 173.

(2) نفسه، 1/ 132.

(3) ينظر: الحويطات، مفلح ضبعان: **تجليات الصّراع في شعر المتنبّي: دراسة في الرؤية والتشكيل**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 2008، ص113.

(4) ينظر: ابن شريفة، محمد: **أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص115.

الحبّ، ولا يقاسي شظفه المؤدي إلى الهلاك، وتبدو نفسيته منهكة حزينة؛ لما لاقاه من لوعة الحبّ، يقول:

جَرّبْتُ مِنْ نَارِ الهَوَى ما تَنطَفي نَارُ الغَضَى وَتَكِلُّ عَمّا تُحْرِقُ

وَعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ فعجبتُ كيفَ يَموتُ مَن لا يَعشَقُ

وَعَذَرْتُهُمْ وعَرَفْتُ ذَنْبي أنّني عَيّرْتُهُمْ فَلَقيتُ فيهِ ما لَقُوا[1]

وينقش الشّاعر صورة مجدولة بالحبّ والموت بينه وبين محبوبته، فيطلب منها أنْ تصله بين الفينة والأخرى؛ ليتمتع بحسن جمالها وبهاء وجهها المشرق، وهو متلهف ببقاء المحبوبة بجانبه؛ لأنّها تمثل ديمومة الحب الذي يبهج مشاعره، وأمّا إعراضها عنه فهو بمثابة انقطاع وصال الحب الذي يؤول به إلى الوهن، وهذه الحالة تنعكس على واقعه النفسي، فيشعر باليأس الذي يشكّل له صورة الموت، وهذا الموت ليس موتا جسديا، وإنّما موت معنوي، سببه غياب المحبوبة عن ناظريه وإعراضها عنه، يقول:

زَوِّدينَا من حُسنِ وَجْهِكِ ما دا مَ فَحُسنُ الوُجوهِ حَالٌ تحُولُ

وَصِلِينَا نَصِلْكِ في هَذِهِ الدّنـ يَا فإنّ المُقَامَ فيها قَليلُ[2]

ويجري الشّاعر مفاضلة بين عشق المرأة وعشق القتال، فعشق المرأة لدى الشّاعر لا يبقى على حاله، فهو وسيلة سفر، تنتهي به إلى مكان محدود، فيخلص من غاياته وأهدافه تجاه عشقه لها، ويرى في ظلّ العشق والهوى غرورا وخداعا، وأنّ العشق يخطف القلب ويصيبه، فتبدأ لواعج الإنسان تتقطع عشقا وحرارة، لكنّه ينفي أنْ يكون ممن يخدعنه النساء، فهو ليس من أصحاب الهوى، بل هو فارس مقدام، مواجه الأعداء، يتلقى طعنات العدا بكل قواه، وشتان ما بين طعنات الحبّ، وطعنات يلقاها في مهاجمة الأعداء، وكلاهما فيه موت، لكنّ الموت في الحبّ ما هو إلا خيالات بصرية تمرّ من أمامه وتذهب، وأمّا الموت في ظلّ المعركة، فهو دفاع عن العزّة والكرامة والمبادئ التي يطمح أنْ يحققها الإنسان، يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 74 . 75.

(2) نفسه، 3/ 268.

وَلِلخَوْدِ منّي ساعَةٌ ثمّ بَيْنَنَا فَلاةٌ إلى غَيرِ اللّقَاءِ تُجَابُ

وَمَا العِشْقُ إلاّ غِرّةٌ وَطَمَاعَةٌ يُعَرّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ

وَغَيرُ فُؤادي للغَوَاني رَمِيّةٌ وَغَيرُ بَنَاني للزّجَاجِ رِكَابُ

تَرَكْنَا لأطْرَافِ القَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إلاّ بِهِنّ لِعَابُ[1]

ويصور الشّاعر حالته النفسية، وما ألمّ به من العشق، فهو في حالة مجهدة، أتعبه غياب المحبوبة، فلم يرَ أمامه إلا الحزن والأسى، فأصبحا بمثابة الوصال لديه، وعلى الرغم من أنّ الوصال يكمن في اقتراب المحبوبة، جعله– أيضا– يقترب في غيابها، وذلك في الوصال الجامع بين هجرها له، والحزن الذي رافقه بين الحين والآخر، فانقطاع حبال الحبّ بينهما، أدّى إلى اتصال حبال الحزن الشديد، وإذا أمعنّا النظر في تعبيره نجد انقطاع الحبّ بمثابة انقطاع العاشق عن الحياة، والتصاق الحزن هو التصاق الموت به، يقول:

كأنّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بقَلبي فَساعَةَ هَجرِها يَجِدُ الوِصالا[2]

وينقش صورة ممزوجة بين الحبّ والموت، وذلك في صورة الفتيات الحسان المدججات بالحلي والزينة، صاحبات العيون الواسعة، وكل هذه الصفات فيهنّ تجلب للشّاعر الموت، كما تفعل الرماح والسيوف على أرض المعركة، فصورة الموت في جمالهن الساحر، كصورة الموت في معانقة الفارس سهام الحرب، فكلتا الصورتين أدّى به إلى الهلاك، يقول:

مِنْ طاعِني ثُغَرِ الرّجالِ جآذِرٌ ومِنَ الرّماحِ دَمَالِجٌ وخَلاخِلُ

ولِذا اسمُ أغطِيَةِ العُيُونِ جُفُونُها مِنْ أنّها عَمَلَ السّيُوفِ عَوامِلُ[3]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/317،318.

الغواني: جمع غانية وهي التي غَنيت بحسنها وجمالها عن الحلي، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة غنا.

بناني: الأصابع، وقيل: أطرافها، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة بنن.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 340.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 369.

الجآذر: ولد البقرة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة جذر.

دمالج: المِعْضَدُ من الحُليِّ، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة دملج.

ويمزج بين الحبّ والموت بطريقة جميلة، ذلك حين يجمع بين جمال الفتاة البهي المتمثل في صفات جمالية تعطي ديمومة واستمرارية في الحياة، وبين السيف الذي يُعَدُّ يد المنون التي تقبض الأرواح، وقد أضفى الشّاعر على الصفات الجمالية الموت والهلاك، وذلك حينما مزج بين عناصرها الحية، وعناصر الموت المتجسّدة في صورة السيوف، وتمثل ذلك في لحظات عينيها القاتلة المتسلطة على الشّاعر، كما تتسلط السيوف المتساقطة على الأحياء أثناء القتال، يقول:

رَأينَ التي للسّحرِ في لحَظاتِها سُيُوفٌ ظُباها من دَمي أبداً حُمرُ

تَنَاهَى سُكونُ الحُسنِ في حرَكاتِها فليسَ لراءٍ وجهِها لم يَمُتْ عُذْرُ[1]

ويتجلَّى ضعف الشّاعر ووهنه، وتطغى عليه أسمى درجات العشق، عندما تكفُّ أنظار المحبوبة عنه، فتتغير ملامحه الجسدية، فيغدو منحول الجسد مبريّ الهوى، ولم يبق منه إلا عظام وعروق، فلم يستطع الاقتراب من المحبوبة ومعانقتها، حتى النظر المتعمد إليها، وأحسّ بالموت يداهمه من كل جانب، يقول:

حُلتِ دونَ المَزارِ فاليَوْمَ لوْ زُرْ تِ لحالَ النُّحولُ دونَ العِناقِ

إنّ لَحْظاً أدَمْتِهِ وأدَمْنَا كانَ عَمداً لَنا وحَتفَ اتّفاق[2]

ويخشى على نفسه من الرّدى حينما يلاقي المحبوبة، فيتربص أهلها به، فيلقى منهم شتى مظاهر الموت المتمثلة في وقع السيوف والرماح، لكن شتان ما بين جزعه من الموت فيما يلاقيه من قبيلة المحبوبة، وبين ما يلاقيه من المحبوبة نفسها من هجر وبعد، فيرى في هجران المحبوبة له موتا شديدا، فهو لا يخاف من قتل أهلها له، فقتل المحبوبة له بهجرها أشدُّ إيلاما وأكبر وقعا من قتله بالسيوف والرماح، يقول:

متى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيارَتَهَا لا يُتْحِفُوكَ بغَيرِ البِيضِ وَالأسَلِ

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/ 227.

[2] نفسه، 3/ 102.

وَالهَجْرُ أَقْتَلُ لي مِمّا أُراقِبُهُ أنَا الغَريقُ فَما خَوْفي منَ البَلَلِ[1]

ويدمج بين الموت والحبّ في تصوير حالته النفسية المتعبة من هوى العشق الذي سرى في جسمه كالدم، وأنحله، وصبّ فيه العلل والأسقام، وهذه العلل سببها عيون المحبوبة الواسعة، فحينما يحدقّ ببصره إلى تلك العيون، يصيبه الهلاك من دائها، ويلفت الشّاعر النظر إلى من يظنّ أنّ الخوض في غمار الحب أمرٌ هيّنٌ، فلينظر إلى العشق ماذا فعل به، وكأنّ من يتذوق طعم الحبّ يرى فيه طعم الموت، يقول:

عَزيزٌ أسَى مَن دَاؤُهُ الحَدَقُ النُّجْلُ عَيَاءٌ بهِ ماتَ المُحبّونَ من قَبْلُ

فَمَنْ شاءَ فَلْيَنْظُرْ إليّ فمَنظَري نَذِيرٌ إلَى مَن ظَنَّ أنَّ الهَوَى سَهْلُ

وما هيَ إلاّ لحظَةٌ بَعدَ لحظَةٍ إذا نَزَلَتْ في قَلبِهِ رَحَلَ العَقْلُ

جَرَى حُبُّهَا مَجْرَى دَمي في مَفاصِلِي فأصْبَحَ لِي عَن كُلِّ شُغلٍ بهَا شُغْلُ[2]

ويدعو الشّاعر على النساء الجميلات بأن تتشقق خدودهن، وأن تقطع رقابهن الجميلة، وذلك لما لاقاه من مشقة في هجرهن له، وصدودهن عنه، ودعوته هنا دعوة مغتاظ مكلوم، يقول:

أيَا خَدّدَ الله وَرْدَ الخُدودِ وَقَدّ قُدودَ الحِسانِ القُدودِ

فَهُنّ أسَلْنَ دَماً مُقْلَتي وَعَذّبْنَ قَلبي بطُولِ الصّدودِ[3]

وتتجلّى رؤية الشّاعر في الحبّ والموت من خلال وقوفه على الأطلال وآثار الدّيار المقرونة بالأحبّة، وتبرز "أهمية المكان بما يضمه من أهل وأحباب وأصحاب، وبما تحويه جنباته

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 199 . 200.

البيض: الأبيض: السيف، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة بيض.

الأسل: الرماح، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة أسل.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 296 . 298.

النجل: الواسعة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة نجل.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/63.64.

من ذكريات وأيّام، فالمكان يشعر بالموت حين يهجره أهله وساكنوه"[1]، وكأنَّما الدّيار تعمّر ما عمّر الأحبّة، والحياة تبقى ببقائهم، ولهذا أراد الشّاعر أنْ تبقى خطوات الأحبّة حوله، لا أنْ تزول خطواتهم من أمامه، فتزول معهم الحياة، وكأنّه في حالة صراع دائم مع الموت، يقول:

لا تَحْسَبوا رَبعَكُمْ ولا طَلَلَهْ أوّلَ حَيٍّ فِراقُكُمْ قَتَلَهْ

قَد تَلِفَتْ قَبْلَهُ النّفوسُ بكُمْ وأكثرَتْ في هَواكُمُ العَذَلَهْ[2]

ويظهر في هذين البيتين تركيز الشّاعر على ربعهم الخالي، وأطلالهم الدارسة، التي غدت ذاتا إنسانية، ويرهقها البعد والفراق، فهي شديدة الحزن على من ارتحلوا، يقتلها الكمد والحرمان[3].

وجملة القول إنَّ المرأة كان لها حيزٌ في شعره، فكثيرا ما وردت في مطالع قصائده التي تنوعت موضوعاتها، واقترن ذكرها مع الموت الذي ينفر منه الشّاعر، فوجودها بجانب الشّاعر معادل الحياة التي تبعث فيه الراحة والطمأنينة والسكينة، وغيابها عنه معادل للموت الذي يحطم فؤاده، وينحل جسده، ويوهن عظمه، فيجعله يستقبح الحياة لفقدان الحب فيها، ويعتريه اليأس الذي يجعله متشائما منها، ناظرا إليها بمنظار أسود.

---

[1] العرفج، أحمد عبد الرحمن حسين: **شعر الشكوى عند المتنبّي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، السعودية، 1420هـ، ص92.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/ 381 . 382.

[3] ينظر: ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص215.

الفصل الثاني

ملامح الموت في شعر المتنبّي

المبحث الأول: الشّيب.

المبحث الثاني: الزّمان.

أ- فاعليّة الزّمان:

1. الزّمان الظالم.

2. الزّمان مفرّق الأحبة.

3. الزّمان المخادع.

4. الزّمان المُهلك.

ب- مجابهة الزّمان.

المبحث الثالث: الفراق.

المبحث الأول

الشّيب

إنّ للشّيب تأثيرا سلبيا على الإنسان يتمثَّلُ في نحوله وضعفه وحلول هرمه، فهو الطريق الموصل إلى الهلاك، فحينما يشيب الإنسان يكون متيقّنا من دنو أجله، واقتراب المنية منه، وأنّه يسير في طريق نهايته الموت، وقد "رأى إياس بن قتادة[1] شعرة بيضاء في لحيته، فقال: أرى الموت يطلبني وأراني لا أفوته، أعوذ بك يا رب من فجاءات الأمور"[2]، فالشّيب يُعدّ مظهرا من مظاهر الموت، وهو غالبا ما يرتبط مع الكهولة، والهرم، والضعف، وقلة الحيلة، فهو نذير الفناء والزوال، إذ لا بقاء ولا خلود كما يتمنَّى الأحياء، بل إنّهم مخلوقون للموت، يتخطفهم واحدا تلو الآخر.

ويبين القرآن الكريم بداية خلق الإنسان وصولا إلى كهولته في قوله: ﴿ ***هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ***﴾[3]. وفي مرحلة الشيخوخة يطرأ على جسم الإنسان تغيرات نفسيه وعقلية وجسدية، فتصبّ فيه العلل والأسقام، ويسيطر عليه الوهن والضعف، ويشير القرآن الكريم إلى هذا في قوله تعالى: ﴿ ***اللَّه الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْف ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد ضَعْف قُوَّة ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد قُوَّة ضَعْفًا وَشَيْبَة يَخْلُق مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيم الْقَدِير***﴾[4].

وقد أثَّر الشّيب في نفوس الشّعراء "ما أدّى بهم إلى أنْ لا يروا في ذلك الشّيب اللون الأبيض فحسب، وإنّما شيئا أكبر من ذلك بكثير وأخطر، فتصوروه إنسانا ظالما يهجم على لذاتهم، فيسرقها

---

[1] إياس بن قتادة بن أوفى، من بني مناة بن تميم من الطبقة الأولى من التابعين، وأمه الفارعة بنت حميري.
ينظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، 261/9.

[2] الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **عيون الأخبار**، تح: لجنة من دار الكتب المصرية، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، مج2، 6\324.

[3] سورة غافر، آية 67.

[4] سورة الروم، آية 54.

منهم، ليس ذلك فحسب، بل تصوروه نذيرا جاء ينذرهم بقرب الأجل"[1]، وقد عدَّ بعض الشّعراء الشّيب رسولا جاء لينذرهم بقرب الأجل، بل هو الموت الذي يقبض الأرواح، وينقلها من الدنيا إلى عالم الغيب[2].

والمتنبّي ليس بعيدا عن الشّعراء الذين أحسّوا بالشّيب، ورأى فيه علامة من علامات الموت، وينجم عنه إحساس بالتّقدم في السن، وظهور علامات الكبر عليه، فيراه نذير الموت، وقد يراه ملمحا من ملامح الوقار، والرزانة، والحكمة، وأمّا الحديث عن الشّيب بوصفه معادلا للموت، فقد ورد ذكره في شعره، وسيقوم الباحث بالوقوف على أبيات تحمل موضوع الشّيب.

يجعل الشّاعر من الشّيب ضيفا لا حياء له؛ وذلك لظهوره المفاجئ في رأسه بلا استئذان، فبدا له أنّ سقوط السيف على رأسه أهون من فعل الشّيب برأسه، لما ينتج عنه من وهن وضعف، فهو يفضّل فعل السيف بالرأس على فعل الشّيب بالشَّعر؛ لأنّ لون الشّيب أقبح ألوان الشَّعر[3]، ويجعل الشّيب قاتله عندما يتغذى على صباه، فينقله من مرحلة الشّباب (القوة والفتوة) إلى مرحلة الوهن والعجز (الكهولة والكبر)، فأراد أنْ يُشعر المتلقي ببشاعة الشّيب، والأثر الذي تركه عليه، "ولعلّ همومه الثقيلة في تلك المرحلة وانشغاله بالإعداد للثورة أصاب وجدانه بالغُضون والهرم، فأحسّ بالشّيب النفسي المبكر، وهو لا يزال في غضارة الصبا"[4]، وذلك في قوله:

ضَيْفٌ أَلَمّ برَأسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ والسَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنهُ باللِّمَمِ

إبعَدْ بَعِدْتَ بَياضاً لا بَيَاضَ لَهُ لأَنْتَ أَسْوَدُ في عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ

بِحُبِّ قَاتِلَتي وَالشَّيْبِ تَغْذِيَتي هَوَايَ طِفْلاً وَشَيبي بالغَ الحُلُمِ[5]

---

[1] الشمري، ثائر سمير حسن: **التشخيص في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري . دراسة نقدية**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ص143.

[2] ينظر: الشمري، ثائر سمير حسن: **الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2014، ص169.

[3] ينظر: محجوب، فاطمة: **قضية الزمن في الشعر العربي الشباب والمشيب** ، ص46.

[4] الدسوقي، عبد العزيز: **في عالم المتنبي**، ص40.

[5] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/150-152.

اللمم: إذا ألمّ الشعرُ بالمنكب فهو لِمّة، وقيل: إذا جاوز شحمة الأذن، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة لمم.

ويشير الشّاعر إلى أنّ الشّيب مكروه للعين رؤيته؛ لأنّه يدلّ على سقم، وكبر، وهلاك، إيذانا باقتراب الموت المحتم، ويبيّن أنّ ازدياد الشّيب بمثابة نقصان في الصبا والشّباب، فكلما زاد الشّيب في الشَّعر قرب الأجل والهلاك، ومهما زاد العمر بعد ظهور الشّيب فإنَّه لا يجدي نفعا، ويربط الشّاعر بين سواد العين وبياض الشّيب، إذ "إنّ بياض الشَّعر معناه الاقتراب من الشيخوخة، وما من إنسان يبلغ الغاية في الشّباب حتى يبدأ في الانحدار نحو نهايته أو شيخوخته"[1]، وقد وصل بغض الشّاعر للشّيب درجة يجعله فيها مساويا للعمى عندما ربطه بسواد العين، يقول:

متى لحظَتْ بَياضَ الشّيبِ عيني فقد وَجَدَتْهُ منها في السّوَادِ

متى ما ازْدَدْتُ من بعدِ التّناهي فقد وقَعَ انْتِقاصي في ازْدِيَادي[2]

ويتحسّر على أيّام صباه وشبابه، وكيف كان مغوارا في المعارك لا يخشى الموت، ولكن حين غزا الشّيب رأسه أهلكه، وحوّل قوته إلى ضعف مميت، فالهمّ اخترق جسده، وأصبح نحيلا هزيلا يكابد المرض، ويشير إلى أنّ الشّيب ظهر في رأسه قبل أوانه، وهذا ما جعله يصارع المرض ويخشى الموت، فالشّيب لن يفارق رأسه والموت لن يتركه، يقول:

رَاعَتْكِ رَائِعَةُ البَياضِ بمَفْرِقي وَلَوَ أنّهَا الأولى لَرَاعَ الأسْحَمُ

لَوْ كانَ يُمكِنُني سَفَرْتُ عن الصِّبا فالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الأوَانِ تَلَثُّمُ

وَلَقَدْ رَأيتُ الحادِثاتِ فَلا أرَى يَقَقاً يُمِيتُ وَلا سَوَاداً يَعْصِمُ

وَالهَمُّ يَخْتَرِمُ الجَسيمَ نَحَافَةً وَيُشيبُ نَاصِيَةَ الصّبيّ وَيُهرِمُ[3]

---

[1] سلامة، يسرى محمد: **الحكمة في شعر المتنبي**، ص 138.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 2/77-78.

[3] نفسه، 4/250-251.

الأسحم: الأسود، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة سحم.

يققا: أبيض، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة يقق.

ويخاطب ممدوحه سيف الدولة الحمداني، مؤكّدا له أنّ في تكرار السنين حظا كبيرا وشرفا أكبر له، وفي المقابل يرى أنّ غيره لم يحصدوا من تكرار السنين سوى الشّيب والكبر، فغدا تكرار السنين عاملا مهمّا في نمو الشّيب والشيخوخة، ومع كل سنة تذهب يغزو الشّيب شّعر الأحياء، يقول:

فإنّ حَظّكَ من تَكرارِها شَرَفٌ وَحَظَّ غَيرِكَ منها الشّيبُ والكِبَرُ[1]

ويخاطب الشّاعر ممدوحه علي بن إبراهيم التنوخي قائلا : إنّ الأعداء صبروا وتحمّلوا الذلَّ والهوان منه، على الرغم من كرههم له، كما يتحمّل الإنسان بزوغ الشّيب في رأسه، ويصبر على ما سيُعانيه بعد ظهوره، يقول:

رَضُوا بِكَ كالرِّضَا بالشَّيْبِ قَسْراً وقد وَخَطَ النَّواصِيَ والفُرُوعَا[2]

ومن طبع الحياة الغدر، فلا تبقى على حال واحد، ويبيّن الشّاعر أنَّ الحياة الأكثر وفاءً تلك التي لا تغدر بصاحبها بعد مشيبه، فتصحبه مدة أطول، وتجعله يستمتع في حياته، وفي كلّ لحظة تمرّ به، ومع ذلك فإنّ الحياة إلى زوال، وهذا أمر حتمي لا جدال فيه، فالشّاعر يرى أنّ الحياة تكون وفيّة عندما تُمكِّن صاحبها من العيش الرغيد، وتُبعد عنه الموت حتى وإنْ شاب، وهذا يبدو جليا في قوله:

وَأَوْفَى حَيَاةِ الغَابِرِينَ لِصاحِبٍ حَياةُ امْرِئٍ خَانَتْهُ بَعدَ مَشيبِ[3]

ويتَّضح حزنه على ما أصابه وألمّ به، فسبب تغير حاله ظهور الشّيب، إذ جعله يشعر بأنّه قد كبر، واقترب منه الموت، ويرى أنّ حاله تتغير مع الزّمان، ولكن الزّمان لا يشيب ولا يتغير، يقول:

تَغَيّرَ حَالي واللّيالي بحالِها وشِبْتُ وما شابَ الزّمانُ الغُرانِقُ[4]

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 200/2.

(2) نفسه، 365/2.

النواصي: الناصية عند العرب مَنبتُ الشعر في مقدّم الرأس، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة نصا.

الفروع: التامُّ الشَعر، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة فرع.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 176/1.

(4) نفسه، 83/3.

ويرى أنّ الزّمان وما فيه من معاناة، وحزن، وألم، من شأنه أنْ يؤثّر في ظهور الشّيب، فمن يكابد ظلمة الحياة، ويتذوق مرارتها، ومرارة الأيّام، يسارع الشّيب في الولوج إلى رأسه، ويغطيه بلمح البصر، وأمّا من لا يعاني من الحياة، ويعيش فيها سعيدا، فيتأخر وصول الشّيب إلى رأسه، ويبقى شابا بكامل حيويته، يقول:

لَقَدْ شَبّ في هذا الزّمانِ كُهُولُهُ لَدَيْكَ وَشابَتْ عندَ غَيرِكَ مُرْدُهُ[1]

وجعل من فقد الصحة والشّباب بعدا عن الحياة، واقترابا من الموت، وينبغي على الشيخ ألا يتأفف وألا يملّ من الحياة، "غير أنّ الملل قد لا يكون مللا من الحياة؛ وإنّما يكون مللا من الضعف الذي يأتي به الكبر"[2]، فضجره وتأففه ليس من الحياة، وإنّما لظهور الشّيب في شعره، إذ جعله يكره الحياة ويملّها؛ لأنّ الإنسان شديد التعلّق بالحياة، لا يتركها بسهولة، ولكن الشّيب يُشعر الشيخ بالضعف والكبر، يقول:

وَإذا الشّيخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَـ ـلّ حَيَاةً وَإنّمَا الضّعْفَ مَلاّ

آلَةُ العَيشِ صِحّةٌ وَشَبَابٌ فإذا وَلّيَا عَنِ المَرْءِ وَلّى[3]

ويتحدّث الشّاعر عن تأثير الشّمس على الوجه، وكيف أنّها تُحوِّل لون الوجه الأبيض إلى أسود، وكذلك الشّيب يحول الشَّعر الأسود إلى أبيض، ولكن الفرق بينهما بيِّن، فالشّمس تسوّد الوجه ولكنّها لا تسوّد الشّعر، وأمّا الشّيب، فإنّه يبيّض الشّعر ويسوّد الوجه؛ لأنّ الإنسان بظهور الشّيب يبدو حزينا مكتئبا، فينعكس حزنه على وجهه، والشّاعر "يكلف الشّمس بأمر الصباغ، فإذا هي تكتفي بصباغ الوجه دون العذار[4]... وخص العذار واللمة[5] بالحديث؛ لأنّهما أول موضعين

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 126/2.

(2) محجوب، فاطمة: **قضية الزمن في الشعر العربي الشباب والمشيب**، ص104.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 249/3-250.

(4) العذار: جانب اللحية، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة عذر.

(5) اللمة : إذا ألمّ الشعرُ بالمنكب فهو لِمّة، وقيل: إذا جاوز شحمة الأذن، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة لمم.

يشيبان في الإنسان"[1]، ولو رجعنا إلى مجرب في الدنيا، لأقرّ بأنّ من عظيم قدرة الله أنْ تسوّد الشّمس الوجه دون أنْ تسود الشّعر، ولا ينطبق هذا الحكم على الناس جميعهم، أمّا الشّيب، فسيغزو شعر الجميع، ويحوِّل الأسود إلى أبيض لا محالة ويقرّب الموت، يقول:

تُسَوِّدُ الشّمسُ منّا بيضَ أوْجُهِنَا ولا تُسَوِّدُ بِيضَ العُذرِ وَاللِّمَمِ

وَكانَ حالهُمَا في الحُكْمِ وَاحِدَةً لوِ احتَكَمْنَا منَ الدّنْيا إلى حكَمِ[2]

وفي النماذج السابقة ما يوضّح بغض الشّاعر للشّيب، وذمّه وتصويره بأبشع الصور، وقد اتسمت هذه النماذج بطابع اليأس والتشاؤم من الشّيب، وجاءت نابعة من إحساس صادق، جسّد حجم هذا الداء . الشّيب . وشدة وطأته، ومدى أثره، ووقعه على النَّفس.

علما أنَّ هناك نماذج من شعره يمدح فيها الشّيب؛ لما فيه من وقار وحلم ورزانة، "فَيُمدح بأنّ فيه الجلالة، والوقار، والتجارب، والحنكة، وأنّه يصرف عن الفواحش، ويصد عن القبائح، ويعظ من نزل به، فيقلل إلى الهوى طماحه، وفي الغي جماحه، وأنّ العمر فيه أطول، والمهل معه أفسح، وأنّ لونه أنصع الألوان وأشرفها"[3]، ومثلما ذمّ الشّاعر الشّيب، وصوره بأبشع الصّور، وجعل فعله أشدّ قوة من فعل السّيف، كذلك فإنّه يمدح الشّيب ويتغنّى به، بل يتجاوز ذلك عندما يتمنَّى أنْ يقطن في رأسه، وذلك في قوله:

مُنًى كُنّ لي أنّ البَياضَ خِضابُ فيَخفَى بتَبييضِ القُرونِ شَبَابُ

لَيَاليَ عندَ البِيضِ فَوْدايَ فِتْنَةٌ وَفَخْرٌ وَذاكَ الفَخْرُ عنديَ عابُ

فكَيْفَ أذُمُّ اليَوْمَ ما كنتُ أشتَهي وَأدْعُو بِمَا أشْكُوهُ حينَ أُجَابُ

---

[1] الشوشي، أروى أحمد عبد الرحمن: **شعر الشيب والشباب في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤتة، الأردن، 1992، ص45.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 286/4.

[3] الشريف المرتضي، علي بن حسين الموسوي: **الشهاب في الشيب والشباب**، ط 1، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، 1302هـ، ص3.

جلا اللّوْنُ عن لوْنٍ هدى كلَّ مسلكٍ كمَا انجابَ عن ضَوْءِ النّهارِ ضَبابُ

وَفي الجسْمِ نَفسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ وَلَوْ أنّ مَا في الوَجْهِ منهُ حِرَابُ[1]

ويبدو في هذه الأبيات أنّ في جعبة الشّاعر جملة من الأماني، أهمها أنْ يخضب الشّيب رأسه، من منطلق أنّ الشّيب علامة هيبة ووقار وعظمة، وقد بدا مفتخرا بالشّيب بعد أن كان أمرا معيبا، فهو لا يستطيع ذمّ الشّيب؛ لأنّه أصبح يطمح إليه، وقد غدا عنده شيئا يستحق أنْ يفخر به، وعلى الرغم من أنّ الشّيب قد غطى رأسه، كما يغطي الضباب ضوء النهار، إلا أنّ نفسه لم تشب، بل بقيت متينة صلبة، وما زال جسده قويا، وبدا متفائلا ومادحا للشّيب، وقد جعل من الشّيب إنسانا يمدحه ويفخر به.

ويعيب الشّاعر من يبكي الشّباب بسبب ظهور الشّيب، ويرى أنّ الشّيب تكملة الصبا، وأنّ الشّيب لم يكسُ الشّعر لأنّه قبيح، بل على النقيض من ذلك، فهو أمر مستحسن، "وليس بياض الشّعر قبيحا، ولكنه غير مستحب إلى النّفس، ويفضل عليه النّاس اللون الأسود، ولهذا لا يلعن أبو الطَّيِّب البياض في الشّعر[2]، يقول:

مُشِبُّ الذي يَبكي الشّبابَ مُشيبُهُ فكَيفَ تَوَقّيهِ وبانِيهِ هادِمُهْ

وتَكْمِلَةُ العَيشِ الصِّبا وعَقيبُهُ وغائِبُ لَوْنِ العارِضَينِ وقادِمُهْ

وما خَضَبَ النّاسُ البَياضَ لأنّهُ قَبيحٌ ولكِنْ أحْسَنُ الشَّعرِ فاحِمُهْ[3]

ويرى الشّاعر أنّ الخضاب مكر وخداع[4]، ويفتخر بلون الشّيب الأبيض الذي غزا شعره، فهو لا يريد أنْ يغير لونه حتى تحبّه النساء، وهو لا يحب الكذب، ولا يريد أنْ يجعل لون شعره مكذوبا، بل يريد أن يبقي اللون كما هو، "فالمتنبّي يرى الصدق يكمن في إظهار الشّيب دون

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/313-316.

(2) سلامة، يسرى محمد: **الحكمة في شعر المتنبي**، ص141.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/51.

(4) ينظر، محجوب، فاطمة: **قضية الزمن في الشعر العربي الشباب والمشيب**، ص91.

تغطية أو صباغ، ولا داعي للخضاب؛ لأنّ البياض أفضل من الأكذوبة التي يقنع الشّاعر بها نفسه"[1]، وهو يهوى الصدق في كل شيء في قوله وعاداته أيضا، فليس من طبعه الكذب حتى لو كان في تغيير لون شعره، يقول:

وَمِنْ هَوَى كلّ مَن ليستْ مُمَوِّهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشيبي غيرَ مَخضُوبِ

وَمِن هَوَى الصّدقِ في قَوْلي وَعادَتِهِ رَغِبْتُ عن شَعَرٍ في الرّأس مكذوبِ[2]

ولو فارق الشّيب رأسه؛ لتوجّع قلبه باكيا على فراقه، فقد اعتاد ألفة الشّيب، وفي حبّه للشّيب يطرح فكرة جديدة، وهي كون الشّيب أصبح رفيقا له يلازمه، وكأنّ العلاقة أصبحت من باب الصداقة والمآخاة[3]، وهذا دليل على أنّ الشّيب قد غزا رأسه وهو صغير السن، فألفه كما يألف الإنسان شيئا ما ويتعوّد عليه، ولا يستطيع مفارقته بسهولة، يقول:

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَا لَفارَقتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا[4]

ومن يظهر في رأسه الشّيب يكون أكثر حلما واتزانا، ويرى الشّاعر أنّ الشيّب أحق بالبكاء من غيره؛ لأنّه يأتي بمنافع للإنسان، كالوقار والحكمة[5] ، يقول:

وَالمَرْءُ يأمُلُ وَالحَيَاةُ شَهِيّةٌ وَالشّيْبُ أَوْقَرُ وَالشّبيبَةُ أَنْزَقُ[6]

ومن هنا فإنّ ظهور الشّيب في رأسه يحمله على أن يكون صاحب عقل متزن، على النقيض من الشّباب الذي قد يدفعه لأن يكون طائشا غير مكترث، فالشّيب يزيد من اتزانه ووقاره.

---

(1) الشوشي، أروى أحمد عبد الرحمن: **شعر الشيب والشباب في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، ص49.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 292/1-293.

(3) ينظر: الشوشي، أروى أحمد عبد الرحمن: **شعر الشيب والشباب في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، ص62.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 421/4.

(5) ينظر: محجوب، فاطمة: **قضية الزمن في الشعر العربي الشباب والمشيب**، ص36.

(6) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 76/3.

واعتمادا على ما سبق من نماذج، يتَّضح أنّ المتنبّي قد وقف من الشّيب موقفين، الأول نَفَرَ فيه من الشّيب، وعدَّه عدوا له، والثاني يعتز فيه ويفخر بالشَّيب؛ لما فيه من عظمة، ووقار، ورجاحة عقل.

المبحث الثاني

الزّمان

لقد لازم ادكار الموت وشخوصه الدائم، الشعور بالرَّهبة من الزّمان، والقلق من سرعة مروره، حتى كأنّ كلّ يوم يمضي بمثابة خطوة نحو القبر، وقد عبّر الشّعراء عن ذلك بأساليب شتّى[1]، وغالبا ما يشكو الشّاعر من سوء حظه، ومن حياته المؤلمة، فيعاتب الزّمان على إعطائه مكانة عالية مرموقة للجهلاء، وإهماله العلماء والفضلاء، وهذا يحيله إلى الشعور بقسوة الحياة، وسطوة الزّمان وتجبره عليه.

ويبدو أنّ الإحساس بالزّمان انعكاس للإحساس بالحياة، فكلما أحسَّ الإنسان بالحياة وتعمّق فيها، كان أكثر إحساسا بالزّمان وفهما له؛ لأنّ الزّمان يمثل التهديد المتواصل في إنهاء لحظات الحياة، والقضاء على الأحياء فيها[2]، وهذا دليل على قدرة الزّمان على فناء الموجودات والقضاء على الأحياء، وهو ما يبعث في النّفس البشرية الرّهبة التي يرافقها الحزن والأسى.

عاش المتنبّي صراعا مريرا، وظلَّ طيلة حياته يعبّر عنه، وحاول أنْ يحوّل الضعف إلى قوة، وكان الزّمان قطب ذلك الصراع عنده، فجاء في شعره نماذج شخّصت الزّمان أداة موت، يحمل في طياته المصائب والشدائد، التي يلقي بها على الأحياء، فيقلّص أعمارهم يوما بعد يوم، ويتخطّفهم واحدا تلو الآخر[3]، والشّاعر يشكو الزّمان ومصائبه، ويأتي على النوائب، ولؤم الناس، شاكيا فسادهم، ومكرهم، ونفاقهم[4].

والنَّاظر إلى الزَّمان في شعر المتنبّي، يجده مليئا بالمصائب التي انعكست عليه، وتركت أثرا سلبيا على نفسيته، ويتجلَّى ذلك في حديثه عن فاعليّة الزّمان وسطوته في جوانب مختلفة من

---

(1) ينظر، العوادي: عدنان حسين: **الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي**، د.ط، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979، ص139.

(2) ينظر، الزير، محمد بن حسن: **الحياة والموت في الشعر الأموي**، ص146.

(3) ينظر، الخياط، جلال: **الشعر والزمن**، د.ط، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975، ص40.

(4) ينظر، حسين، طه: **مع المتنبي**، ط13، دار المعارف، د.ت، ص108.

شعره، وفي مواضع أخرى من شعره يتحدّى فيها الزّمان، وعلى الرغم من تأثيره وأفعاله عليه إلا أنّه يقف صامدا أمامه، محاولا التخلّص من ظلمه وجبروته، ومن هذا المنطلق قام الباحث بتقسيم الزّمان إلى قسمين وهما:

أولا: فاعليّة الزّمان:

ترك الزّمان أثرا سلبيا على الشّاعر، وقد نظر إليه نظرات مختلفة في شعره، فأحيانا كان يراه ظالما يصبُّ مصائبه عليه، وأحيانا يرى فيه سببا في تفريقه عن الأحبّة وبعدهم عنه، كما أنَّه يرى فيه الخداع والمكر، وهذه الرؤى مجتمعة جعلت الشّاعر في نهاية المطاف يعتقد بدور الزّمان في إهلاكه؛ ما حدا به إلى أنْ ينظر إلى الزّمان على أنَّه مهلكٌ قاتلٌ، وسيقوم الباحث بتفصيل رؤى الشّاعر للزّمان على النحو الآتي:

1. الزَّمان الظّالم:

إنَّ الشّاعر لا يرضى بقسمة الزّمان، ويشكّ بإنصافه لكونه يتَّسم بالجور والضيم في العطاء والإحسان، فهو "لا يتقبل أيّ منحة من الزّمان دون أن يكون اختياره عنصرا واضحا في عملية الأخذ والعطاء، فهو يرفض أنْ يقوم بدور المتلقي أبدا، ويتأبّى سيادة الزّمن عليه"[1]، يقول:

أعطَى الزّمانُ فَمَا قَبِلْتُ عَطَاءَهُ وَأَرَادَ لي فأَرَدْتُ أنْ أتَخَيّرَا[2]

والزّمان بمثابة وسيلة لولوج المرء إلى أهدافه، وتحقيق غاياته وأحلامه، إلا أنَّ الزّمان في نظر الشّاعر يعجز عن إعطائه مراده، يقول:

أُريدُ مِنْ زَمَني ذا أنْ يُبَلّغَني مَا لَيسَ يبْلُغُهُ من نَفسِهِ الزّمَنُ

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلاّ غَيرَ مُكترِثٍ ما دامَ يَصْحَبُ فيهِ رُوحَكَ البَدنُ[3]

---

[1] الخياط، جلال: **الشعر والزمن**، ص43.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 269/2.

[3] نفسه، 364/4.

وفي هذين البيتين يتّضح طبع الزّمان وصفاته، فهو ظالم، وقاسٍ، ومتسلط، يُحكم السيطرة على الشّاعر، ويمطره برزاياه وخطوبه، ويجعل حياته مليئة بالمصائب والفجائع التي يتصدّرها الموت[1].

ولكثرة مصائب الشّاعر النابعة من جَوْرِ زمانه وضيمه، نراه يدعو لممدوحه بالسلامة من خطوب الزّمان وصروفه، ويدعو أن لا تقف الليالي ومصائبها في صفِّ أعداء ممدوحه، يقول في رثاء أخت سيف الدولة:

فَلا تَنَلْكَ اللّيالي، إنّ أيْدِيَهَا إذا ضَرَبنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بالغَرَبِ

وَلا يُعِنّ عَدُوّاً أنْتَ قاهِرُهُ فإنّهُنّ يَصِدْنَ الصّقرَ بالخَرَبِ[2]

ويبرز سخطه من النّاس وبغضه وتضجّره من أهل زمانه، ويرى أنَّ الزّمان يرفع من قيمة الجهلاء متناسيا العلماء، يقول:

إنّا لَفي زَمَنٍ تَرْكُ القَبيحِ بهِ من أكثرِ النّاسِ إحْسانٌ وَإجْمالُ[3]

ويتربص الزّمان بالفضلاء من الناس، فيجعلهم أهدافا له، ويتسلط عليهم؛ ليرميهم برزاياه، ويلقي عليهم نوائبه ومحنه، يقول:

أفاضِلُ النّاسِ أغراضٌ لِذَا الزّمَنِ يَخلُو مِنَ الهَمّ أخلاهم من الفِطَنِ[4]

فهو يشكو من الأيّام؛ لأنّها تخالف العظماء وترفع شأن الأقزام الجهلاء[5]، ويرى أنَّ النّاس تضامنوا مع الزّمان في جلب المحن والمصائب إليه، فالناس يلحقون الأذى بعضهم ببعض، والشّاعر حين يهجو الزّمان، فإنَّه يقصد الموجودين فيه من أهل زمانه، ويسقط على أهل زمانه

---

[1] ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص166.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 1/223-224.

[3] نفسه، 3/407.

[4] نفسه، 4/341.

[5] ينظر، حلمي، محمد كمال: **أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه**، ص241.

صفة الخضوع والانقياد للزّمان، فيبيّن طريقة النّاس في خدمة الزّمان ونوائبه، فالزّمان والنّاس وجهان لعملة واحدة، يكمل كل منهما الآخر في فعل الشّر، ويعين كل منهما الآخر على فعله[1]، يقول:

صَحِبَ النّاسُ قَبلَنا ذا الزّمَانَا وَعَنَاهُمْ مِن شأنِهِ مَا عَنَانَا

وَتَوَلّوْا بِغُصّةٍ كُلّهُمْ مِنْـ ـهُ وَإنْ سَرّ بَعْضَهُمْ أحْيَانَا

رُبّمَا تُحسِنُ الصّنيعَ لَيَالِيـ ـهِ وَلَكِنْ تُكَدّرُ الإحْسَانَا

وَكَأنّا لم يَرْضَ فينَا برَيْبِ الـ ـدّهْرِ حتى أعَانَهُ مَنْ أعَانَا

كُلّمَا أنْبَتَ الزّمَانُ قَنَاةً رَكّبَ المَرْءُ في القَنَاةِ سِنَانَا[2]

فهو يبغض الزّمان ويستقبحه، بدليل رفضه لأفعاله، فلا يرى في الزّمان شيئا يُحمد، وإنّما وجد فيه عدوّا له حتى مظاهر الطبيعة التي تدخل البهجة والسرور في الأفئدة[3].

ويرى في زمانه وسيلة من وسائل الشر، فيسقط عليه غضبه، ويظهر قباحة وجه زمانه الذي يجسِّد فيه صفات الخسّة واللؤم، وربما انعكست هذه الصفات القبيحة على أهل زمانه، فهو يستقبح الزّمان الذي لا يعرف قيمة العظماء، ويقلل من قدرهم، ويرفع شأن الجهلاء[4]، يقول في رثاء أبي شجاع فاتك :

قُبْحاً لوَجهِكَ يا زَمَانُ فإنّهُ وَجهٌ لَهُ من كُلّ قُبحٍ بُرْقُعُ[5]

---

(1) ينظر، حسين، طه: **مع المتنبي**، ص322.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/370-372.

(3) ينظر، حلمي، محمد كمال: **أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه**، ص240.

(4) ينظر، نمر، حنا: **دراسات في الأدب والفن**، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1982، ص259.

(5) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/18.

والشّاعر في هذا البيت يُلقي لومه على الدّهر ويعاتبه؛ لأنّه قضى على فاتك، ولم يقترب من كافور، وتركه يَنعمُ بالحياة[1].

2. الزَّمان مفرّق الأحبّة:

عدَّ الشّاعر الزّمان مؤرّقا له، وظهر ذلك في الليل الطويل المقترن بالهموم والآلام المنصبّة عليه، ولعلّ أبرز هذه الهموم ناجمة عن فراق المحبوبة ونأيها عنه، فطول الليل جعله سقيما متعبا؛ لكثرة الحزن الذي يعتريه، يقول:

فَيَا لَيْلَةً ما كانَ أطْوَلَ بِتُّهَا وَسُمُّ الأفاعي عَذْبُ ما أتَجَرّعُ[2]

فهو حين يستحضر خيال المحبوبة لا يعرف نوما ولا سكينة، ويلقى ما يلقى من احتراق القلب وطول الليل وسهاده[3]، ويبيِّن احتقاره لليلته، فهو يستقبحها ويعبّر عن مدى طولها، وكأنّها الدّهر، يقول:

أُحادٌ أمْ سُداسٌ في أُحَادِ لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةُ بالتّنادِ[4]

وقد أنهكته الأيّام وأتعبته، ولم تهبه ما كان يأمل منها ويرجو تحقيقه، فقد أشعلت نار الفراق بينه وبين أحبابه، وذلك عندما باعدت بينهما، ولهذا فإنَّه يشكو هذه الأيّام التي فرقت بينه وبين أحبابه، ولم تقف إلى جانبه، يقول:

أوَدُّ مِنَ الأيّامِ مَا لا تَوَدُّهُ وَأشكُو إلَيهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ

يُباعِدْنَ حِبّاً يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ فكَيفَ بحِبٍّ يَجْتَمِعنَ وَصَدُّهُ[5]

---

(1) ينظر، حلمي، محمد كمال: **أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه**، ص205.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 346/2.

(3) ينظر، مطلك، حيدر لازم: **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي**، ص78-79.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 74/2.

(5) نفسه، 119/2.

ويظهر سخطه من الدّهر وكرهه الشّديد له؛ لأنَّه مفرِّق وممزِّق أوصال الأحبّة، وجالب للبَيْنِ والغربة، يقول:

مَن خَصّ بالذّمّ الفراقَ فإنّني مَن لا يرَى في الدهر شيئاً يُحمَدُ[1]

ويأتي هذا البيت كاشفا عن مدى تشابك فروقات الحياة ورزاياها، فيعلي الشّاعر من صوته المتضجّر المتأفّف الذي لا يرى في الدّهر ما يستوجب حمده[2].

ويسيطر عليه الإحساس بأنَّ الزّمان لا يفر منه أحدٌ، ويشير إلى الموقف العدائي الذي تقفه الليالي منه، ويتجلَّى بإخفاء الأحبّة عنه، "فهذه الليالي حالكة وطويلة ومتشابهة، تبدي له أشياء يبغضها ولا يريدها، وتخفي عنه ما يتوق إليه من أشياء أخرى، لا يبلغها، أو يدنو منها"[3]، يقول:

لَيَاليّ بَعْدَ الظّاعِنِينَ شُكُولُ طِوالٌ وَلَيْلُ العاشِقينَ طَويلُ

يُبِنَّ ليَ البَدْرَ الذي لا أُريدُهُ وَيُخْفِينَ بَدْراً مَا إلَيْهِ سَبيلُ[4]

فهو يشعر أنّ الزّمان ضيّق العيش عليه، وأنّ كل شيء تلاشى بعد ارتحال الأحبّة عنه، فأصبحت لياليه حالكة طويلة بعد فراق أحبّته[5].

وتبرز شكوى الشّاعر من الدّهر، فيراه فاسدا، لم يترك له شيئا يتنعّم فيه، يُضيِّق في وجهه الأمور، ويكبت على أنفاسه، حتى أنَّه يزاحمه في العشق، فحوادث الدّهر وتحوّلاته جعلته لا يلبّي

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 103/2.

(2) ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص150.

(3) مطلك، حيدر لازم: **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي**، ص74.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 217/3.

(5) ينظر، الدسوقي، عبد العزيز: **في عالم المتنبي**، ص56.

أيّ نداء للحب[1]، ولهذا فإنَّ الشّاعر يملّ الحياة، ويطغى عليه الشعور باليأس والإحباط، بيدَ أنَّ عواقب الدّهر دفعت به إلى ردة الفعل المعاكسة، وهي السعي والتشمير عن ساعد الجدِّ[2]، يقول:

لم يَترُكِ الدّهْرُ مِنْ قَلبي وَلا كبدي شَيْئاً تُتَيّمُهُ عَينٌ وَلا جِيدُ[3]

ومنذ نعومة أظفاره لم تفارقه نوائب الدّهر، ومن كثرة ما ذاق من الدّهر أصبح عالما بفعله ووقعه، متيقنا مما يصنعه، وقد سيطر عليه إحساس حاد ومؤلم، إثر الفاجعة التي حلَّت به عند فقدان جدته، وقد آلم ذلك قلبه، وخيَّم عليه اليأس والإحباط من الزّمان، إلى درجة دفعته إلى تحريم السرور على نفسه، يقول:

عرَفْتُ اللّيالي قَبلَ ما صَنَعَتْ بنا فلَمَا دَهَتْني لم تَزِدْني بها عِلْمَا

حَرامٌ على قَلبي السّرُورُ فإنّني أعُدّ الذي ماتَتْ بهِ بَعْدَها سُمّا[4]

3. الزَّمان المخادع:

وصف الشّاعر الزَّمان بالغدر والخيانة، فلا أمان له ولا وفاء، وهو في تغير دائم، ولا يعرف الثبات على عهد، ولا يكف عن غدره، ولا يتوقّف عن خيانته.

ينظر الشّاعر إلى الزّمان نظرة سوداوية، فيصفه بالمخادع واللئيم، حتى أنَّه يسئ الظن به، ودائم الحذر منه، ولا يأمن مكره وشره، لأنَّ الزّمان لا يستقر على حال، ويجور على الأحياء فيه، يقول:

يُعَلّلُنَا هَذا الزّمانُ بذا الوَعْدِ وَيَخْدَعُ عَمّا في يَدَيْهِ من النّقدِ[5]

---

(1) ينظر، حلمي، محمد كمال: **أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه**، د.ط، إدارة مكتبة ومطبعة الشباب،1921، ص191.

(2) ينظر، مطلك، حيدر لازم: **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي**، ص70.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 141/2.

(4) نفسه، 229/4.

(5) نفسه، 170/2.

ويبدو في هذا البيت أنَّ نظرة الشّاعر السوداوية للزّمان، يجسّد فيها نظرته لأهل عصره، الذين وقفوا في وجهه، وشكلوا عائقا بينه وبين آماله، وقد كانوا عونا للزّمان في ضيمه، ولو نظرنا إلى حياة الشّاعر نجد أنَّ هذه النظرة السوداوية نابعة من حياته الصعبة، التي كان يتنقل فيها تائها باحثا عن مراده الذي لم يصل إليه، ولهذا يسقط شكواه على الزّمان فيعاتبه؛ لأنَّه لم يبلغه منالـه، بل كان معاكسا لأمانيه وأحلامه، يقول:

ألا لَيْتَ شعري هَلْ أقولُ قَصِيدَةً فَلا أشْتَكي فيها وَلا أتَعَتّبُ[1]

ومن شدة ما عانى من الزّمان الذي تسبَّب له بالحزن والأسى، قرن بين فعل إبليس وشره، وصروف الدّهر ونوائبه في قوله:

يا مَنْ نَلُوذُ مِنَ الزّمانِ بِظِلِّهِ أبداً ونَطْرُدُ باسْمِهِ إبْلِيسَا[2]

والأيّام ـ كما يرى الشّاعر ـ غير مأمونة الجانب، فلا يؤمن غدرها، إذ تفجع من كان مسرورا في بعضها، فتوقع رزاياها عليه بأخذ ما يحب، فتغدو حياته خالية إلا من المحن التي تحيط به من كلّ جانب، وإن ظنَّ المرء زوال المحن فيظهر الدّهر فجأة؛ ليفجعه ويوقع عليه الرزايا، يقول:

وَإنْ سَرَرْنَ بمَحْبُوبٍ فجَعْنَ بهِ وَقَد أتَيْنَكَ في الحَالَينِ بالعَجَبِ

وَرُبّمَا احتَسَبَ الإنْسانُ غايَتَهَا وَفاجَأتْهُ بأمْرٍ غَيرِ مُحْتَسَبِ[3]

والدّهر مخالف للشّاعر ـ كما يعتقد ـ وتجري حوادثه بغير ما يأمل، فلو أمل أنْ يصل من يهوى لفرّقه الدّهر، ولو تمنَّى أنْ يفارق الأحبّة لأوصلهم الدهر له، فهو دائما يعارضه ويعانده، وهذا لمكره وخبثه، يقول:

وأحْسَبُ أنّي لوْ هَوِيتُ فِراقَكُمْ لَفارَقْتُهُ والدّهرُ أخبثُ صاحِبِ[4]

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 304/1.

(2) نفسه، 308/2.

(3) نفسه، 224/1.

(4) نفسه، 275/1.

ويقول:

أمَا تَغْلَطُ الأيّامُ فيّ بأنْ أرَى بَغيضاً تُنَائي أوْ حَبيباً تُقَرّبُ[1]

والشّاعر طموح مغامر في الوصول إلى مبتغاه، لم يقنع بما وهبه الدّهر؛ لأنَّه يرى الدّهر دنيء وخسيس ولئيم، ولهذا فإنَّه لا يؤمن له ولا يطمئن لعطاياه، وهذا يعطيه سببا لبغض الزّمان الذي يمثل العصر وأهله، والنقمة عليه؛ لغياب الفضل، واستلاب حق العيش[2]، يقول:

أينَ فَضْلي إذا قَنِعْتُ منَ الدّهْـ ـرِ بعَيْشٍ مُعَجَّلِ التّنكيدِ[3]

ويظهر طبع الحياة المتقلب بين سرور وحزن، ويبيّن أنّ الزّمان مثلما يهب المرء اللذّة والمتعة في الحياة، فإنّه يعكر صفوه أيضا ويكبت أنفاسه، ويبعث في نفسه الحزن والأسى، يقول:

جَمَحَ الزّمانُ فَلا لَذيذٌ خالِصٌ ممّا يَشُوبُ ولا سُرُورٌ كامِلُ[4]

ولا يترك الزّمان الشّاعر يهنأ بحياته، وينعم بنضارة الحياة ولذَّاتها، فلا يغتنم لحظات السعادة والسرور ويستمتع بها، وتظهر قسوة الزّمان وتجبره عندما يسعى إلى إلحاق الضرر بالشّاعر في قوله:

فَلا تُلزِمَنّي ذُنُوبَ الزّمَانِ إلَيّ أسَاءَ وَإيّايَ ضَارَا[5]

4. الزَّمان المُهلك:

إنَّ الزّمان متسلط وقاسٍ، لا يصغي لبكاء اليتامى ولا لحزن الثكالى، تقطف يده المهلكة الأحياء على الأرض دون رحمة، يصول ويجول فلا يبقي على والد ولا على ولد، وهو مستمر في إسقاء الأحياء كؤوس المنون.

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 301/1.

(2) ينظر، مطلك، حيدر لازم: **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ص56.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 44/2.

(4) نفسه، 370/3.

(5) نفسه، 198/2.

يعدُّ الزَّمان رمزا للفناء، فبقدومه تمضي حياة المرء نحو النهاية، ومع هذا فإنَّ الموت قضية زمنية مهمة[1]، فالزّمان بمثابة يد المنون، وهو مستمر في حصاد النفوس، وقبض الأرواح في حركته الدائمة المستمرة، يقول:

ولَكَ الزّمانُ مِنَ الزّمانِ وِقايَةٌ ولَكَ الحِمامُ مِنَ الحِمامِ فِداءُ[2]

ويخيِّم على الشّاعر الخوف والقلق والإحساس بالضجر والإحباط، ويبدو هذا جليا حينما يقرن الزّمان بالفناء، فمن طبع الزّمان وصفاته زوال الأحياء، فهو كالكائن الشّرس الذي ينقض على الأحياء؛ لافتراسهم والفتك بهم، والقضاء على لحظات وجودهم في الحياة، عندما يتخطّفهم واحدا تلو الآخر[3]، يقول:

نَفْسٌ لها خُلْقُ الزّمانِ لأنّهُ مُفني النّفُوسِ مُفَرِّقٌ ما جَمّعَا[4]

وتظهر قوة الزّمان وجبروته، في قدرته على سلب أرواح الأحياء، وحقوقهم، وكلّ ما يملكونه، يقول في رثاء عمة عضد الدولة[5]:

لا جَزَعاً بَلْ أنَفاً شابَهُ أنْ يَقْدِرَ الدّهْرُ على غَصْبِهِ[6]

ويبدو عضد الدولة في هذا البيت ذاتا عظيمة، لا تأبه بحزن، ولا تعرف الاستسلام لمصائب الزّمان[7].

---

(1) ينظر: الحوراني، محمد عيسى: **الدهر في شعر ابن الرومي**، د.ط، دروب للنشر والتوزيع، 2006، ص112، نقلا عن كتاب الزّمن في الشعر الجاهلي، عبد العزيز شحادة، ص58.

(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 155/1.

(3) ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص111.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 7/3.

(5) عضد الدولة أبو شجاع بن أبي علي الحسن ركن الدولة بن بويه، أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية، تولى ملك فارس ثم الموصل وبلاد الجزيرة، كان مهيبا جبارا عسوفا عالما بالعربية، كان محبا للعمران، توفي سنة 372.
ينظر: الحلبي، صفي الدين أبو الفتح عيسى بن البحتري: **أنس المسجون وراحة المحزون**، ط1، تح: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، 1997، ص150.

(6) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 335/1.

(7) ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص240.

والزّمان يهب الشّاعر المصائب التي يصبّها في جسده، فتضعفه، ويُؤثّر عليه فيغدو ذا نفسية مضطربة جزعة من الحياة، لكنّه يبقى على حاله، ولا طاقة لأحد على التأثير فيه، يقول:

تَغَيّرَ حَالي واللّيالي بحالِها وشِبْتُ وما شابَ الزّمانُ الغُرانِقُ[1]

ويؤكّد أنَّ صروف الدّهر ونوائبه لها القدرة على إهلاك الأحياء، والوصول إلى أهدافها دون عناء، يقول:

يَرُوعُهُمْ مِنْهُ دَهْرٌ صَرْفُهُ أَبَداً مُجاهِرٌ وَصُرُوفُ الدّهرِ تَغْتالُ[2]

ويقرن بين فعل الزّمان ونوائبه، وفعل السيف وأثره في النَّفس، فالزّمان هو القاتل الحقيقي الذي يُحكم السيطرة على البشر، ولا سلطة لأحد عليه[3]، ويظهر بغض الشّاعر للزّمان وذمّه له، عندما يصرّح بأنَّه لا تؤمل عنده حياة، وذلك عندما يقف الزّمان حائلا بينه وبين تحقيق آماله التي يرجوها، وأهدافه التي تصبو نفسه إلى الوصول إليها، وتحقيق غاياته، ما يدفعه إلى العزوف عن الزواج، وعدم التفكير فيه ما دام الموت يقف كالمرصاد متربّصا بالناس، ينتظر لحظة الانقضاض عليهم، يقول:

إذا ما تأمّلتَ الزّمانَ وصَرْفَهُ تيَقّنْتَ أنّ الموْتَ ضرْبٌ من القتلِ

وما الدّهرُ أهلٌ أنْ تُؤمّلَ عِندَهُ حَياةٌ وأنْ يُشتاقَ فيهِ إلى النّسلِ[4]

ويبيِّن أنَّ الزّمان مظهر من مظاهر بهجة الحياة ونضارتها عند النّاس، فهو عندهم باعث من بواعث الفرح والسرور، إلا أنّ نصيب الشّاعر منه المعاناة، والحزن، والألم من خطوبه ورزاياه، وهو "يتصور أنّه ولد في نهاية هذا العالم، وأنّ مصائب الزّمن كلها نابعة من تقادم العهد، ويغبط الناس الذين عاشوا شباب الزّمن وفتوته"[5]، يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 83/3.

(2) نفسه، 404/3.

(3) ينظر، الخياط، جلال: **الشعر والزمن**، ص42.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 177/3-179.

(5) الخياط، جلال: **الشعر والزمن**، ص43.

أَتَى الزّمَانَ بَنُوهُ في شَبيبَتِهِ فَسَرّهُمْ وَأَتَيْنَاهُ عَلى الهَرَمِ[1]

ومعظم إيحاءات هذا البيت تدور حول فكرة الموت، وما ينتج عنه من فناء وزوال، بدا بوضوح من خلال جعل الزّمان ذاتا بشرية تعيش لحظات حياتها الأخيرة، لحظات ضعفها وعجزها[2]، وهذا يذكّر بالموت الذي يتحرّك لإنهاء حياة الأحياء، دون أنْ يكون هناك أمل في إيقافه أو تأخيره[3].

ويظهر الدّهر عند الشّاعر بصورة ثوب جميل يزيد لابسه جمالا، بيد أنّ هذا الثّوب يتعاقب على لابِسِهِ حتى يبلى لابِسُهُ، ويبقى الثوب كما هو، فالدهر مفني الأحياء ومهلك الأشياء، يقول:

إذا ما لَبِسْتَ الدّهْرَ مُستَمتِعاً بِهِ تَخَرّقْتَ وَالمَلْبُوسُ لم يَتَخَرّقِ[4]

ثانياً: مجابهة الزَّمان:

إنَّ الزّمان يثقل عزيمة الإنسان، إلا أنَّ الشّاعر يصرُّ على استنفاد كل ما بداخله من طاقة لمجابهته، والتصدي لصروفه الملقاة عليه، وعلى قبيلته، يقول:

قُضاعَةُ تَعْلَمُ أنّي الفَتى الّـ ـذي ادّخَرَتْ لصُروفِ الزّمَانِ[5]

وعلى الرغم من تتابع السنين على الشّاعر، وتأثيرها في جسده من هرم وكبر، إلا أنَّ نفسه صلبة شابة، صورها عصيّة على الدهر، يقول:

يُغَيِّرُ مني الدّهرُ ما شَاءَ غَيرَهَا وَأَبْلُغُ أقصَى العُمرِ وَهيَ كَعابُ[6]

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 296/4.

(2) ينظر: ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص293.

(3) ينظر، لوبروتون، دافيد: **انتروبولوجيا الجسد والحداثة**، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط 2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997، ص141.

(4) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 51/3.

(5) نفسه، 321/4.

(6) نفسه، 316/1.

وتبدو نفس الشّاعر في هذا البيت مخالفة لحركة الزّمان؛ تحدّيا له، ومنسجمة مع ذاتها مؤتلفة وفتيّة[1].

ومهما كثرت مصائب الزّمان وبلاياه على الشّاعر، فإنَّه لم يجزع منه، أو يضيق ذرعا به، فهو دائما صبور على صروف الدّهر ذو جلدٍ وتحدٍ أمام نوائبه، "فقد وجد نفسه قوي الإرادة، صبورا على نوائب الدّهر، وأشد صلابة من أنْ يجزع أو أن تلين عريكته، ولهذا فالشّاعر كريم الجانب عند الفضلاء"[2]، يقول:

ضاقَ ذَرْعاً بأنْ أضيقَ بهِ ذَرْ عاً زَماني واستَكرَمَتْنِي الكِرامُ[3]

ومع تتابع أرزاء الدّهر ومصائبه على الشّاعر، غدت هذه المصائب حالة اعتاد عليها، ولطول عراكه مع الزّمان غدا آنسا بها، فلم تعد تشكل خطرا عليه، وصار لا يأبه بكثرتها، لأنَّها تتحطم أمام عزيمته وإرادته، يقول:

رَماني الدّهرُ بالأرزاءِ حتى فُؤادي في غِشاءٍ مِنْ نِبالِ

فَصِرْتُ إذا أصابَتْني سِهامٌ تكَسّرَتِ النّصالُ على النّصالِ

وهانَ فَما أُبالي بالرّزايا لأنّي ما انْتَفَعتُ بأنْ أُبالي[4]

ويقول:

إنّ نُيُوبَ الزّمَانِ تَعْرِفُني أنَا الذي طالَ عَجْمُها عُودي

وَفيّ ما قَارَعَ الخُطُوبَ ومَا آنَسَني بالمَصائِبِ السُّودِ[5]

---

[1] ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص72.

[2] مطلك، حيدر لازم: **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي**، ص37.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 217/4.

[4] نفسه، 141/3-142.

[5] نفسه، 386/1.

ويظهر الشّاعر بطلا لا يضعف أمام هذه المصائب وكثرتها، فلا ينسحب، بل يقف أمامها متحدّيا لها، يقول:

إن تَرْمني نَكَباتُ الدّهرِ عن كَثَبٍ تَرْمِ امرأً غيرَ رِعْديدٍ وَلا نَكِسِ[1]

وقد عزم على انتصار قدره على مشيئة الليالي والزّمان، فهو يتّخذ من الزّمان عدوا يحمل كل معاني الشّر والهلاك[2]، يقول:

أمِثْلي تأخُذُ النّكَباتُ مِنْهُ وَيَجزَعُ مِنْ مُلاقاةِ الحِمامِ

ولو بَرَزَ الزّمانُ إليّ شَخصاً لخَضّبَ شعرَ مَفرِقِهِ حُسامي

وما بَلَغَتْ مَشيئَتَها اللّيالي ولا سَارَتْ وفي يَدِها زِمَامي[3]

وفي هذه الأبيات جمع الشّاعر بين الزّمان والليل، وكأنّ حياته حالكة لم يرَ فيها نورا أو فرحا، ولكنّ هذا الليل المتجسّد في زمان الشّاعر، لم يُفقده أمله وزمامه، فيظهر وكأنّه المحارب الأسطوري الذي يلقي الزّمان صريعا تحت سيفه.

ويبدو أنّ صورة كره الدّهر تنبثق من المعنى المطروح في الأبيات السابقة، إذ يتمنّى أن يكون الدهرّ إنسانا؛ ليصبّ جام غضبه عليه، ويظفر به حتى يهلكه بين يديه[4]، فقد غدا الدّهر عدوا يقف في وجهه، وهذا يدفع الشّاعر إلى مقاتلته، يقول:

أُطاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوارِسِها الدّهْرُ وَحيداً وما قَوْلي كذا ومَعي الصّبرُ[5]

فالشّاعر يحمل نفسه على الصبر مستعينا بقواه الداخلية، كردة فعل على أرزاء الزّمان

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 297/2.

(2) ينظر، الخياط، جلال: **الشعر والزمن**، ص42.

(3) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 163/4.

(4) ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص280.

(5) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 252/2.

وخطوبه، هذه القوة الداخلية مجتمعة تدفعه إلى الأمام غير مكترث لعواقب الأمور[1]، فهو يظهر وحيدا في مجابهة الدّهر، وكأنَّه الضحية الواقعة تحت شدائد الدّهر ونوائبه، وعلى الرغم من هذه المعركة ووقوفه وحيدا فيها، إلا أنَّه لم يفقد صبره وشجاعته التي أعانته في مواجهة الدّهر، يقول:

وأشْجَعُ مني كلَّ يوْمٍ سَلامَتي وما ثَبَتَتْ إلاّ وفي نَفْسِها أمْرُ[2]

وما أثبته وأخرجه سالما من معركته مع الدّهر، إلا طموحا وغاية في نفسه، جعلته يقف صُلبا أمام مصائبه ونوائبه.

ويبقى في تحد مستمر مع الزّمان وصروفه، وكلما ازداد ضررا منه، ازدادت صلابته وقوته في مواجهته، ويظهر انتصاره على الزّمان عندما ينجح في تحقيق مطالبه، والوصول إلى مراده، يقول:

قَدْ بَلَوْتَ الخُطوبَ مُرّاً وَحُلْواً وَسَلَكتَ الأيّامَ حَزْناً وَسَهْلا

وَقَتَلْتَ الزّمانَ عِلْماً فَمَا يُغْ رِبُ قَوْلاً وَلا يُجَدِّدُ فِعْلا[3]

ويقول:

أذاقَني زَمَني بَلْوَى شَرِقْتُ بها لَوْ ذاقَها لَبَكَى ما عاشَ وانتَحَبَا

وإنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحرْبَ والدةً والسّمْهَريَّ أخاً والمَشرَفيَّ أبَا[4]

وجملة القول إنّ نظرة الشّاعر للزّمان نظرة يملؤها السّواد، فقد وجد فيه سببا من أسباب الهلاك والفناء، فضلا عن عدّه عاملا في زرع الهمّ والغمّ في أفئدة النّاس، ولهذا فقد ثار عليه، وفي ذلك ثورة على الأحياء الموجودين فيه، ووقف وحده يجابه الزّمان، وتلقَّى خطوبه بكبرياء وشموخ، ووجد في قوة النّفس، وإرادتها، وعزمها، وسيلة في مجابهة الزّمان، وتحدي مصاعب الحياة.

---

[1] ينظر، ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص222.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 252/2.

[3] نفسه، 243/3.

[4] نفسه، 248/1.

المبحث الثالث

الفراق

إنَّ للفراق مسمّيات أخرى، وإن اختلفت في الألفاظ فإنّها تتفق في المعنى، فالهجر، والبَيْنُ، والظعن، والرحيل، والنفور، كلّها تدلّ على الفراق الذي يشكّل مظهرا من مظاهر إحساس الإنسان بالموت في حياته، وفراق الشّاعر لأحبّته يُشعره بالنَّقص والحرمان؛ لبعده عنهم، ويثير الشّوق الممزوج بالألم في فؤاده، وما انفك الفراق يرمز إلى الموت في الشِّعر، وبقي الشّعراء يرسمون له صورا مختلفة تدلّ على الموت، وظلّ عندهم قرينا للموت، ومؤديا له، وعبَّروا عنه بأساليب شتى، وهذا يدلّ على شدّة ألم الفراق، ووقعه في النّفس، بحيث أصبح مظهرا من مظاهر الفناء والاندثار في الوجود البشري.

عدَّ الشّاعر الفراق ملمحا من ملامح الموت؛ وذلك من خلال الألفاظ المتمثلة في (مدنف، والنوى، وقتيل، وشهيد، والحسرة، والنيران)، والمتأمل في هذه الألفاظ يستشفّ لوعة الشّاعر، وحزنه على فراق الأحبّة، من خلال نفسية متعبة منهكة تلقي به في دائرة الموت، وقد أجاد في الربط بين الموت والفراق، فأعطى صورة متكاملة عبَّرت عما يعتريه من ألم وحسرة على فراق أحبّته، يقول:

وكَمْ للهَوَى من فَتًى مُدْنَفٍ وكَمْ للنّوَى من قَتيلٍ شَهيدِ

فوَا حَسْرَتَا ما أمَرّ الفِراقَ وَأعْلَقَ نِيرانَهُ بالكُبُودِ[1]

فهو يتعذّب ويتحسّر من ألم الفراق الذي يجعله يشعر بالقلق، ويجعله دائم الشعور بالشّوق والحنين إلى الأهل[2]، يقول:

يَا مَنْ يَعِزّ عَلَيْنَا أنْ نُفَارِقَهُمْ وِجدانُنا كُلَّ شيءٍ بَعدَكمْ عَدَمُ[3]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 64/2.

[2] ينظر: قديد، ذياب: **المتنبي بين الاغتراب والثورة**، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، 2011، ص150.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 87/4.

فالشّاعر في هذا البيت انتقى مفردة (العدم) دون غيرها؛ ليشحن البيت بدلالات الموت.

ويرى في الفراق مولودا يشاطره حياته، وكأنَّهما . هو والفراق . خرجا من بطن واحدة، وقد عكّر الفراق صفوه وكدّر عيشه، فتراءى له صورة من صور الموت يلاحقه بين الفينة والأخرى، ولا يكاد ينفك عنه، ثمَّ ينتقل ليعطي صورة أخرى مذمومة للفراق، فيجعله يتشاكل مع صورة الخيل السريعة، وإن كانت هذه الصفة محمودة، فيقلبها ويجعلها مذمومة؛ لأنّ سرعتها تسرّع في غياب الأحبّة وتفرّق بينهم، كذلك الفراق الذي يشتّت شمل الأحبّة، يقول:

أمّا الفِراقُ فإنّهُ ما أعْهَدُ هُوَ تَوْأمي لوْ أنّ بَيْناً يُولَدُ

ولَقَد عَلِمْنا أنّنا سَنُطيعُهُ لمّا عَلِمْنَا أنّنَا لا نَخْلُدُ

وإذا الجِيادُ أبا البَهِيِّ نَقَلْنَنا عَنكُم فأرْدأُ ما ركِبتُ الأجوَدُ[1]

ويشخّص الشّاعر الموت في ارتحاله عن الممدوح، ويستخدم مفردة (الوداع) أربع مرات في بيت شعر واحد، وهذا يدلّ على شدّة تعلّقه بالممدوح، فحينما فارقه أحسّ بالموت يعتصره، ويلتف حوله لينزع الروح من جسده، ثمّ سرعان ما يدعو الشّاعر السّحاب بالسقيا على مكان الممدوح؛ ليبقى مكانه حيّا وخصبا، ثمّ يطلب من الله أنْ يجمع شمله معه، ويجسّد من الفراق إنسانا يخاطبه؛ ويطلب منه الابتعاد عنه؛ لأنّ ملازمته له تشعره بالموت، يقول:

ماذا الوَداعُ وَداعُ الوامِقِ الكَمِدِ هذا الوَداعُ وَداعُ الرّوحِ للجَسَدِ

إذا السّحابُ زَفَتْهُ الرّيحُ مُرْتَفِعاً فَلا عَدا الرّمْلَةَ البَيضاءَ من بَلَدِ

ويا فِراقَ الأميرِ الرّحْبِ مَنْزِلُهُ إنْ أنْتَ فارَقْتَنَا يَوْماً فلا تَعُدِ[2]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 103.102/2.

[2] نفسه، 116/2.

وبعده عن الممدوح بمثابة رحيله عن الحياة، وقد أجاد الشّاعر في إظهار تعلّقه بالممدوح، كما هو الحال في تعلّق الإنسان بروحه، وجزعه من الموت، وفي كلا الحالين يجسّد ألم الفراق، يقول:

لا تُنكِرَنّ رَحيلي عَنكَ في عَجَلٍ فإنّني لرَحيلي غَيْرُ مُخْتَارِ

ورُبّمَا فارَقَ الإنْسانُ مُهْجَتَهُ يَوْمَ الوَغَى غَيرَ قالٍ خَشيَةَ العارِ[1]

ويتغلغل الألم في أعماق الشّاعر إثر موت أبي شجاع، ويتّضح ذلك من نفسيّته التي توحي بهذا الألم الذي يعتريه، فغياب أبي شجاع سلب منه النوم، وجعله دائم التفكير، وأضحى ليله طويلا لا ينقضي، يقول:

النّوْمُ بَعْدَ أبي شُجَاعٍ نَافِرٌ وَاللّيْلُ مُعْيٍ وَالكَوَاكبُ ظُلَّعُ

إنّي لأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أحِبّتي وَتُحِسّ نَفسِي بالحِمامِ فأشجُعُ[2]

والشّاعر في هذين البيتين لا يعطي الفراق ملمحا من ملامح الموت فحسب، بل إنّه يفوق ذلك، فقد جعله أشدّ وقعا وإيلاما في النّفس، فهو لا يخاف الموت مقارنة بالفراق الذي يخشى منه.

وفي وصفه لفراق الأحبّة، تساقطت دموعه بغزارة، وكأنّه يبكي على إنسان اندثرت آثاره، فيجسّد الشّاعر الفراق بصورة الرماح المودية للهلاك، وكلاهما يجتمعان في صورة الموت، فالفراق يُبعد بين الأحبّة، ويذيقهم طعم الموت، كما هو الحال في الرماح التي تتهاوى على الأحياء؛ لتنهي لحظات حياتهم، وتقضي عليهم، يقول:

أدَرْنَ عُيُوناً حائِراتٍ كأنّهَا مُرَكَّبَةٌ أحْداقُهَا فَوْقَ زِئْبِقِ

عَشِيّةَ يَعْدُونَا عَنِ النّظَرِ البُكَا وَعن لذّةِ التّوْديعِ خوْفُ التّفَرّقِ

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 245/2.

[2] نفسه، 12/3.

نُوَدّعُهُمْ وَالبَيْنُ فينَا كأنّهُ قَنَا ابنِ أبي الهَيْجاءِ في قلبِ فَيلَقِ[1]

ويجمع الفراق والموت معا، فكلاهما سيّان يغيّبان الأحباب، ويقربان الآلام إلى الشّاعر، فالفراق يضعف الشّاعر ويوهنه، ويجعل وجهه مصفرا كالذي أصابه مرض الحمّى، وفي اللون الأصفر دلالة على المرض، "فالأجفان تقرحت من الدموع، وحمرة الخدود تحولت بعد البين إلى خدود صفراء شاحبة، وهذا حال الناس، اجتماع، وفراق، وميت، ومولود، ومحب، وكاره"[2]، يقول:

هُوَ البَينُ حتى ما تَأنّى الحَزائِقُ ويا قَلْبُ حتى أنْتَ مِمّن أُفارِقُ

وَقَفْنا ومِمّا زادَ بَثّاً وُقُوفُنَا فَرِيقَيْ هَوًى منّا مَشُوقٌ وشائِقُ

وقد صارَتِ الأجفانُ قَرْحى منَ البُكا وصارَتْ بهاراً في الخدودِ الشّقائقُ

على ذا مضَى النّاسُ اجتماعٌ وفُرْقَةٌ ومَيْتٌ ومَوْلُودٌ وقالٍ ووامِقُ[3]

والفراق يترك أثرا بارزا على الشّاعر، وكأنّه ينقش معالم الموت على جسده، فلوعة الفراق وعذابه، صورة من صور الموت، فلولاه لما كان طريق للأرواح، يقول:

حيَا وَأيْسَرُ مَا قاسَيْتُ ما قَتَلا وَالبَينُ جارَ على ضَعْفي وَمَا عَدَلا

وَالوَجدُ يَقوَى كما تَقوَى النّوَى أبداً وَالصّبرُ يَنحلُ في جسمي كما نَحِلا

وَلا مُفارَقَةُ الأحبابِ ما وَجَدَتْ لهَا المَنَايَا إلى أرْوَاحِنَا سُبُلا[4]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 52/3.

[2] العرفج، أحمد عبد الرحمن حسين: **شعر الشكوى عند المتنبّي**، ص80.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 83.82/3.

[4] نفسه، 282/3.

وفي رثاء جدته يضفي ألفاظا تُصبُّ في قالب الفراق، ومنها: (البكاء، والخوف، والثكل، والقتل، والهجر)، وهذه الألفاظ توحي بالحالة النفسية السّيئة التي تعمّقت في جسده، فأوهنته وقرّبته من الموت، لا بغضا به بل حبّا له؛ ليلحق في ركاب جدته التي فارقته، يقول:

أحِنّ إلى الكأسِ التي شرِبَتْ بها وأهوى لمَثواها التّرابَ وما ضَمّا

بَكَيْتُ عَلَيها خِيفَةً في حَياتِها وذاقَ كِلانا ثُكْلَ صاحِبِهِ قِدْمَا

ولوْ قَتَلَ الهَجْرُ المُحبّينَ كُلَّهُمْ مضَى بَلَدٌ باقٍ أجَدّتْ لَهُ صَرْمَا[1]

وفي هذه الأبيات يبدو الشّاعر مفعم الإحساس بجدته؛ لذلك فضّل الموت على بقاء صورة فراقها في مخيلته، فتمنّى أنْ يفارق الحياة كما فارقته، ونأت عنه إلى العالم الآخر.

ويستحضر الشّاعر الفراق في رثائه لأبي الهيجاء، وتبدو حالة الشّاعر النفسية حزينة، فيجعل الحزن في موضع الفراق يؤول به إلى المرض، فالموت والفراق سيّان لا ينفصلان عن بعضهما، وقد عبّر عنهما الشّاعر في قوله:

بنا منكَ فوْقَ الرّملِ ما بك في الرّملِ وهذا الذي يُضْني كذاكَ الذي يُبلي

كأنّكَ أبصرْتَ الذي بي وخِفْتَهُ إذا عشتَ فاخترتَ الحِمامَ على الثُّكلِ[2]

وهو يخشى الموت المقرون بفراق الأحبّة، وهذا ما يبدو جليّا في وداعه لشجاع بن محمد الطائي، فيصف الموت القادم عليه بالحيوان المفترس، مشرعا مخالبه نحوه، منقضّا عليه؛ ليسلب روحه، فالشّاعر يقرُّ بأن ليس أمامه من فراق الممدوح سوى الموت، يقول:

الْيَوْمَ عَهدُكُمُ فأينَ المَوْعِدُ هَيهاتِ ليسَ ليَوْمِ عَهدِكُمُ غَدُ

المَوْتُ أقْرَبُ مِخْلَباً من بَيْنِكُمْ وَالعَيشُ أبعَدُ منكُمُ لا تَبعُدُوا[3]

ويرى الشّاعر في الوداع موتا حاصلا يصيبه، ففي فراق الأحبّة ووداعهم يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/227،228.
صرما: اسم للقطيعة، ينظر، ابن منظور: اللسان، مادة صرم.
(2) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/170.
(3) نفسه، 2/51،52.

شَوْقي إلَيكَ نَفَى لَذيذَ هُجُوعي فَارَقْتَني فأقَامَ بَينَ ضُلُوعي

أوَمَا وَجَدْتُمْ في الصّراةِ مُلُوحَةً مِمّا أُرَقْرِقُ في الفُراتِ دُمُوعي

ما زِلْتُ أحذَرُ مِنْ وَداعِكَ جاهِداً حتى اغْتَدَى أسَفي على التّوْديعِ

رَحَلَ العَزاءُ برِحْلَتي فكأنّمَا أتْبَعْتُهُ الأنْفَاسَ للتّشْييعِ[1]

والشّاعر في هذه الأبيات يتدرج في ألمه ومستويات معاناته حتى يصل إلى معنى الموت، فهو بداية يأتي على قلقه وأرقه بعد الفراق، ثمّ يأتي على البكاء وضيق العيش بعدهم، ثمّ يسقط الموت على صبره الذي نفد وانقضى، وما إسقاط الموت على الصبر إلا إسقاطا له على نفس الشّاعر.

ويظهر الشّاعر محبطا يائسا من وصل أحبّته؛ لأنّ الأيّام لم تعطه ما يتمنّى، وكيف لها أنْ تفعل وهي جندٌ للفراق، كل همّها التفريق بين المحبين، وما قرّبت يوما إلا لتبعد، وتزيد في الألم، فطبعها لا بدّ وأن تعود إليه مهما ظهرت على غير عاداتها، يقول:

أوَدُّ مِنَ الأيّامِ مَا لا تَوَدُّهُ وَأشكُو إلَيهَا بَيْنَنَا وَهْيَ جُنْدُهُ

يُباعِدْنَ حِبّاً يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ فكَيفَ بحِبٍّ يَجْتَمِعنَ وَصَدُّهُ

أبَى خُلُقُ الدّنْيَا حَبِيباً تُديمُهُ فَمَا طَلَبي مِنهَا حَبيباً تَرُدّهُ

وَأسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلفُ شيءٍ في طِباعِكَ ضِدّهُ[2]

لذلك لم يجد حلا لبعده سوى مناجاة الراحلين، والدّعاء للركب الذي حملهم إلى دروب البعد، بالحفظ والرعاية مسترجعا مشهد الرحيل، مستذكرا عيون الإبل التي حملت الأحبّة، وكانت مغروقة بالدمع ألما وحسرة على مشهد الفراق الحزين، يقول:

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 356/2.

[2] نفسه، 119/2.

رَعَى الله عِيساً فَارَقَتْنَا وَفَوْقَهَا مَهاً كُلها يُولَى بجَفْنَيْهِ خَدُّهُ

بوَادٍ بِهِ مَا بالقُلُوبِ كَأنّهُ وَقَدْ رَحَلُوا جِيدٌ تَنَاثَرَ عِقدُهُ[1]

ويقف الشّاعر في ربع الأحبّة الخالي مخاطبا إياه في حسرة ولوعة ممزوجة بالعتاب الحزين، بعد أن أشعل نار شوقه في الفؤاد، وذلك عند تذكّره الأحبّة الذين غادروا، وكأنّه بهذه الذّكرى الأليمة أراق دمه المتدفق بغزارة في عروقه، يقول:

أيَدْري الرَّبْعُ أيَّ دَمٍ أراقَا وَأيَّ قُلُوبِ هذا الرّكْبِ شَاقَا

لَنَا ولأهْلِهِ أبَداً قُلُوبٌ تَلاقَى في جُسُومٍ ما تَلاقَى[2]

ويجعل الموت يحيط بالمكان الذي ارتحل منه الأحبّة، ويقف منه موقفا غريبا، فيهاجمه ويدعو عليه بالقحط وعدم نزول المطر، الذي يعد المسبب الرئيس في الحياة، ولعلّ السبب الرئيس الذي جعل الشّاعر يدعو عليه، شدة إحساسه بالموت فيه، فهو لا يجيبه عن الأحبّة، وارتحالهم، ووجهتهم، ويلزم الصمت، والشّاعر يجعل ما في نفسه من استشعار للموت ينصب على المكان غضبا منه، يقول:

مُلِثَّ القَطْرِ أعْطِشْها رُبُوعَا وإلاّ فاسْقِهَا السّمّ النّقيعَا

أُسائِلُهَا عَنِ المُتَدَيّريهَا فَلا تَدري ولا تُذْري دُمُوعَا[3]

فهذه الأطلال لا "ترشد الشّاعر إلى أحبّائه الراحلين، ولا هي تبكي معه، وتشاركه حزنه، ولوعته، ولذا فلا جدوى من بقائها ذكرى حزينة، تعذّبه بماض ميت جميل، لا سبيل إلى بعثه، وإحيائه من جديد"[4].

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 120/2.

[2] نفسه، 39/3.

[3] نفسه، 357/2.

[4] ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص221.

ويعقد الشّاعر مفارقة ثنائية بين حال المكان قبل ارتحال الأحبّة عنه وبعد رحيلهم، فقبل ارتحال الأحبّة كان المكان مشتملا على الأهل ومليئا بالحركة، وكان مشرقا أخضر، وبعد ارتحال الأحبّة، أصبح هذا المكان مقفرا من الأهل والحركة ومظاهر الحياة، فهو يسقط الموت على المكان الذي يرتحل عنه الأحبّة، فتنعدم فيه الحياة، يقول:

بكَيتُ يا رَبْعُ حتى كِدْتُ أُبكيكَا وجُدْتُ بي وبدَمعي في مَغانيكَا

فعِمْ صَباحاً لقدْ هَيّجتَ لي طَرَباً وَارْدُدْ تَحِيّتَنَا إنّا مُحَيّوكَا

بأيّ حُكْمِ زَمانٍ صِرْتَ مُتّخِذاً رِئْمَ الفَلا بَدَلاً من رِئْمِ أهليكَا

أيّامَ فيكَ شُمُوسٌ ما انْبَعَثْنَ لَنا إلاّ ابتَعَثنَ دماً باللّحْظِ مَسْفُوكَا

والعَيشُ أخضَرُ والأطلالُ مُشرِقَةٌ كأنّ نُورَ عُبَيْدِ الله يَعْلُوكَا[1]

وقد أصبح دائم السّهر، وغَرُب عن وجهه النوم، ورأى أنّ البكاء على الأحبّة، وإن أدّى إلى فقد بصره، أهون عليه من فراقهم، ونأيهم عنه، وهذا دليل على أنّه لا يرغب في حياة يخلو منها الأحبّة، يقول:

قَدْ عَلّمَ البَينُ مِنّا البَينَ أجْفانَا تَدْمَى وألّفَ في ذا القَلبِ أحزانَا

قد كنتُ أُشفِقُ من دَمعي على بصري فاليَوْمَ كلُّ عزيزٍ بَعدَكمْ هَانَا[2]

والشّاعر يبكي بكاءً مُرًّا على فراق الأحبّة وفناء المكان منهم، وإذا كان فراق الأحبّة قد أفنى جزءا من عقله، فإنّ فناءهم من المكان الذي يُذكِّره بهم أفنى ما بقي من عقله، وكأنّه يربط بين حياته وبقاء الأحبّة في المكان، فحين ارتحلوا وأقفر المكان منهم، انعكس ذلك عليه فَفَنِي عقله، وحالة الفناء الداخلية (العقل) والخارجية (الأحبّة والمكان)، جعلته يشعر بالموت ويقاسيه، ذلك أنّ حدث الفناء يتوافق مع الموت، يقول:

---

(1) البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 3/115.116.

(2) نفسه، 4/351.353.

دَمْعٌ جرَى فقضَى في الرَّبْعِ ما وجَبَا لأهلِهِ وشَفَى أنّى ولا كَرَبَا

عُجْنا فأذهَبَ ما أبْقَى الفِراقُ لَنا منَ العُقُولِ وما رَدّ الذي ذَهَبَا[1]

ويواصل شَحْنَ نصوصه بدلالات الموت من خلال الألفاظ التي يستخدمها، (حشاشة نفس، ودّعت، ودّعوا، أشيع، جدنا بأنفس، السّم، أدمع)، وهذه الألفاظ تدلّ على مدى ارتباط الموت بالوداع، وحسرة الشّاعر وألمه على فراق الأحبّة، ويبدو جليّا "مقدار ما يفيض به وجدان الشّاعر من حزن على فراق أحبّته، الذين فاجؤوه برحيلهم، فما كان منه إلا أن سقم وهزل، ووقع تحت وطأة المرض، الذي أحاله إلى شبح محتضر، لم يبق فيه سوى فضلة قليلة من الروح، لم تلبث أن أزهقت يوم ارتحل الأحبّة"[2]، يقول:

حُشاشةُ نَفسٍ وَدّعتْ يوْمَ وَدّعوا فَلَمْ أدرِ أيّ الظّاعِنَينِ أُشَيِّعُ

أشاروا بتَسْليمٍ فَجُدْنَا بأنْفُسٍ تَسيلُ مِنَ الآماقِ وَالسَّمُّ أدْمُعُ

حَشَايَ على جَمْرٍ ذَكيٍّ مِنَ الهَوَى وَعَيْنايَ في رَوْضٍ من الحسنِ تَرْتَعُ[3]

وفي هذه الأبيات يعقد الشّاعر ثنائية الحياة والموت، فقرب الأحبّة منه روضة يستمتع بجمالها، وبعدهم عنه جمر يحرقه ويلهب أحشاءه، فالفراق يُذهب بقية روحه، فيشيّعها ويبقى محتارا، أيبكي على روحه التي أوشكت على الفناء أم يبكي على من ظعنوا وارتحلوا؟

وفي أيّام البهجة والسرور يلتقي الأحبّة ويفرحون بلقاء بعضهم ببعض، أمّا الشّاعر فأهله وأحبّته بعيدون عنه، ولا سبيل إلى لقائهم، فهو يتألم لهذا الحال، يقول:

يُضاحِكُ في ذا العِيدِ كُلُّ حَبيبَهُ حِذائي وَأبكي مَنْ أُحِبّ وَأنْدُبُ

أحِنُّ إلى أهْلي وَأهْوَى لِقَاءَهُمْ وَأينَ مِنَ المُشْتَاقِ عَنقاءُ مُغرِبُ[4]

---

[1] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 237/1.

[2] ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ص213.

[3] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 344/2.

[4] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 307/2.

وفي هذين البيتين يستخدم مفردة (الندب) التي لها علاقة بالموت والبكاء على الميت، وكذلك يوظف تعبير (عنقاء مغرب) الدال على بعده عن مكان الأحبّة، وكأنّ هذا البعد القصيَّ بينه والأحبّة، يذكّره ببعد الأحياء عن الأموات، فجعل يندبهم ويبكي عليهم.

ويجعل الشّاعر النوى مكملا للموت، فإذا كان الموت سيخفي الشّاعر عن الحياة، فإنّ النوى يخفي أحباء الشّاعر عنه، وكلاهما في نظره سيّان يكمل كل منهما فعل الآخر، يقول:

بَقائي شاءَ لَيسَ هُمُ ارْتِحالا وحُسْنَ الصّبرِ زَمّوا لا الجِمالا

تَوَلّوْا بَغْتَةً فَكَأنّ بَيْناً تَهَيّبَني فَفاجأني اغْتِيالا

وحَجّبَتِ النّوَى الظّبَيَاتِ عني فَساعَدَتِ البراقِعَ والحِجالا[1]

فالشّاعر في هذا البيت انتقى مفردة (العدم) دون غيرها؛ ليشحن البيت بدلالات الموت.

وتظلّ فكرة الفناء تلحُّ على الشّاعر إثر فراق الأحبّة، فَيُؤنسِن الجماد من حوله؛ ليتماهى معه بعد فراقهم، جاعلا من أطلالهم ضحايا فراقهم، يقول:

إثْلِثْ فإنّا أيّهَا الطّلَلُ نبْكي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإبِلُ

أوْ لا فَلا عَتْبٌ عَلى طَلَلٍ إنّ الطّلُولَ لمِثْلِهَا فُعُلُ

لَوْ كُنْتَ تَنْطِقُ قُلتَ مُعتَذِراً بي غَيرُ ما بكَ أيّهَا الرّجُلُ

أبكاكَ أنّكَ بَعضُ مَن شَغَفُوا لم أبكِ أنّي بَعضُ مَن قَتَلُوا

إنّ الذينَ أقَمْتَ وَاحْتَمَلُوا أيّامُهُمْ لِدِيَارِهِمْ دُوَلُ[2]

---

[1] نفسه، 3/337.338.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/15.16.

وكأنّ الشّاعر يبحث عمَّن يواسيه في هذه المحنة ولا يجد، فيجعل من الطلل إنسانا يواسيه، ويخفّف عنه مصابه، ويقول شعرا على لسانه، فإن كان الشّاعر قد شُغف حبا بمن رحلوا، فإن الطلل قُتل حبا جراء ارتحالهم.

ولما كان الشّاعر غير مرتبط بعزيز كان يهزأ بالفراق وألمه، ولكنّ تجارب الحياة فيما بعد علمته غير ذلك، وأذاقته من الفراق ألوانا من العذاب، حتى أصبح يعدُّ الأحبّة منبع الحياة، وارتحالهم يعني جفاف هذا النبع وانقضاء الحياة، يقول:

قَد كُنْتَ تَهْزَأُ بالفِراقِ مَجَانَةً وَتَجُرّ ذَيْلَيْ شِرّةٍ وَعُرَامِ

لَيسَ القِبابُ على الرّكَابِ وَإنّمَا هُنّ الحَيَاةُ تَرَحّلَتْ بسَلامِ

أرْوَاحُنَا انهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعدَهَا من بَعدِ ما قَطَرَتْ على الأقدامِ

لَوْ كُنّ يَوْمَ جرَينَ كُنّ كصَبرِنَا عندَ الرّحيلِ لَكُنّ غَيرَ سِجَامِ[1]

فهو في هذه الأبيات يعلن رحيل روحه مع رحيل الأحبّة، فهو لا يخرج دمعا من الحزن، بل يخرج روحه عليهم، ويعترف بنفاد صبره على الفراق جرّاء ما ذاق من ويلاته.

وكثرة التجارب في الحياة تجعل الإنسان لا يستغرب من أفجع الأمور، ذلك أنّه ربما عاين مثلها كثيرا، والشّاعر أصبح لا يستغرب فعل الفراق وحوادثه، ذلك أنّه خَبرهُ كثيرا في حياته، وعلم ألمه وعايشه، وبكى منه، فاعتاده وألفه، ولم يعد الفراق مستغربا عليه، ولا مفاجئا له، يقول:

وما اسْتَغْرَبَتْ عَيني فِراقاً رأيْتُهُ ولا عَلّمَتْني غَيرَ ما القلبُ عالمُهْ[2]

واعتمادا على ما سبق من نماذج، يتَّضح أنَّ الفراق بمفرداته ودلالاته ترك أثرا نفسيا على المتنبّي، وغدت صورته بارزة في شعره لا تنفكّ عنه، فالفراق لازم الشّاعر في مناحي كثيرة في حياته، منها: فراقه للأهل، والأحبَّة، والأصدقاء، وبدا ذلك في نماذج متفرقة من شعره، أظهر فيها

---

[1] نفسه، 4/120.122.

[2] البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، 4/50.

لوعة المفارق وحسرته على غياب الأحبَّة، ثمَّ يبدو الفراق جليّا في حديثه عن المكان أو الطلل الذي أصبح مقفرا وخاليا بغياب الأحبَّة.

الخاتِمَةُ:

عَرَضَ الباحِثُ مَوْضوعَ الحَياةِ والمَوْتِ في شِعْرِ المُتَنَبّي بالاسْتِقْصاءِ والوَصْفِ والتَّحْليلِ، وتَوَصَّلَ إلى نَتائِجَ مُتَعَدِّدَةٍ، أَهَمُّها:

- جاءَ تَشاؤُمُ المُتَنَبّي الصّارِخُ مِنَ الحَياةِ نَتيجَةَ النَّكَباتِ المُتَتابِعَةِ الَّتي تَعاقَبَتْ عَلَيْهِ، مِنْ مَوتِ الأَحِبَّةِ، ودُخولِ السِّجنِ، والفَشَلِ في الوُصولِ إلى مَرامِهِ في كَنَفِ سَيْفِ الدَّولَةِ وكَافورِ الإِخْشيدِيّ، فَضْلًا عَنْ كَثْرَةِ حاسِديهِ وبُغْضِهِمْ لَهُ، فَجاءَتْ ثَوْرَتُهُ عَلى الحَياةِ صَارِخَةً نابِعَةً مِنْ تَجْرُبَةٍ قاسِيَةٍ عاشَها الشّاعِرُ.

- أَبْغَضَ المُتَنَبّي حَياةَ الذُّلِّ والهَوانِ، وَأَحَبَّ الحَياةَ الكَريمَةَ العَزيزَةَ، وتَغَنّى بِها واحْتَفى بِها أَيَّما احْتِفاءَ، فَاعْتَدَّ بِالشَّبابِ ومَجَّدَهُ بِوَصْفِهِ وَجْهًا مِنْ أَوْجُهِ الحَياةِ، وتَغَنّى بِالمَرْأَةِ وتَغَزَّلَ بِها في كَثيرٍ مِنْ مَطالِعَ قَصائِدِهِ بِوَصْفِها وَجْهًا آخَرَ مِنْ أَوْجُهِ الحَياةِ، فَجاءَ شِعْرُهُ في سِياقِ الحَياةِ الماجِدَةِ الكَريمَةِ مُفْعَمًا بِأَلْفاظِ الحُبِّ والتَّمَسُّكِ بِالحَياةِ والتَشَبُّثِ بِها، وعِنْدَما كانَ يَذُمُّها في سِياقاتٍ أُخَر، فإِنَّهُ لَمْ يَقْصِدِ الحَياةَ ذاتَهَا، بَلْ قَصَدَ الأَحْياءَ فيها الذينَ سَوَّدوها وجَعَلوها بَشِعَةً بَغيضَةً.

- حَمَلَ الشّاعِرُ الفِكرَ الشّيعِيَّ وآمَنَ بِهِ، وأَخَذَ يُسقِطُ بَعضَ المُعْتَقَداتِ الشّيعِيَةِ عَلى مَمدوحيهِ في شِعْرِهِ، وعِنْدَمَا كانَ يَصِلُ بِمَمْدوحيهِ إلى دَرَجَةِ الألوهيّةِ، فإِنَّهُ كانَ يُعَبِّرُ عَن الفِكرِ الشّيعِي الذي يُؤمِنُ بِهِ، وأمّا تَقمّصُهُ صُورَةَ الأَنْبِياءِ، فَرُبَّما يَرجِعُ ذلِكَ إلى اعْتِدادِهِ الزَّائِدِ بِنَفسِهِ وغُرورِهِ، وتَرَفُعِهِ عَنِ الذّاتِ البَشَرِيَّةِ، وقَدْ بَدا مُتَأَثِّرًا بِالمَعاني الدّينِيَّةِ الإِسْلامِيَّةِ في حَديثِهِ عَنْ حَتْمِيَّةِ المَوْتِ، فَيَقْتَبِسُها ويَضْفيها عَلى حَديثِهِ، وبَدَتْ الأَفْكارُ الإِسْلامِيَّةُ المُتَعَلِّقَةُ بِالمَوتِ مَبْثوثَةً في حَديثِهِ عَنْ حَتْمِيَّةِ المَوتِ وشُمولِيَّتِهِ، فالشّاعِرُ كانَ مُتَأَثِّرًا كُلَّ التَّأَثُرِ بِالإِسْلامِ في سياقِ حَديثِهِ عَنِ المَوتِ وحَتْمِيَّتِهِ.

- خاضَ المُتَنَبّي غِمارَ المَعارِكِ، فَأَتى في ذلِكَ عَلى شِعْرِهِ، وتَغنّى بِالفُروسِيَّةِ والشَّجاعَةِ، ونَبَذَ الخَوْفَ والجُبْنَ والهُروبَ مِنْها، فجاءَ شِعْرُهُ في هذا السّياقِ عِبارَةً عَنْ لَوْحاتٍ مِنَ

الإعْجابِ والفَخْرِ في الإقْدامِ في المَعارِكِ، وفي المُقابِلِ لَوْحاتٌ تُعَبِّرُ عَنْ نُفورِهِ مِنَ الجُبَناءِ الذينَ لا تَصْبو نُفوسُهُمْ إلى المَعالي.

- كانَتْ المَرْأَةُ حاضِرَةً فِي مَطالِعَ كَثيرَةٍ مِنْ قَصائِدِ المُتَنَبِّي، واقْتَرَنَ ذِكْرُها مَعَ ذِكْرِ المَوتِ، وهذا يَدُلُّ عَلى فِكْرِتَيْنِ: أَوَّلُهُما: أَنَّ المَرْأَةَ الَّتي تُمَثِّلُ الحُبَّ كانَتْ مُعادِلًا مَوْضوعِيًّا لِلْحَياةِ عِنْدَ الشّاعِرِ، وثانيهِما أَنَّ غِيابَ المَرْأَةِ الَّتي تُمَثِّلُ الحُبَّ يُعدُّ مُعادِلًا مَوْضوعِيًّا لِلْمَوتِ عِنْدَهُ.

- في حَديثِ المُتَنَبّي عَنِ الشَّيْبِ ثُنائِيَّةٌ ضِدِّيَّةٌ، فأَحْيانًا يَذُمُّ الشَّيْبَ ويُتْبِعُ ذَمَّهُ بِالتَّشاؤُمِ مِنْهُ، فَقَدْ عَدَّهُ مَلمَحاً مِنْ مَلاَمِحِ المَوتِ، ونَذيرًا بِالنِّهايَةِ المَحْتومَةِ، وأَحْيانًا يَمْدَحُهُ ويَجْعَلُهُ عَلامَةً مِنْ عَلاماتِ الوَقارِ والحُلْمِ والرُّشْدِ، وكانَ مَدْحُهُ لِلشَّيْبِ أَوْ ذَمِّهِ لَهُ بِحَسْبِ ما يَقْتَضيهِ سياقُ النَّصِ، وَبِحَسْبِ الحالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتي عاشَها أَثْناءَ نَظْمِ النَّصِ الشِّعْرِيِّ.

- نَظَرَ المُتَنَبّي إلى الزَّمانِ نَظْرَةً سَوْداوِيَّةً، فقَدْ عَدَّهُ مِنْ أَسْبابِ الهَلاكِ والفَناءِ، وعامِلًا في زَرْعِ الهَمِّ والغَمِّ في أَفْئِدَةِ النّاسِ، فَثارَ عَلَيْهِ وقَرَّرَ مُجابَهَتَهُ وعَدَمِ الاسْتِسْلامِ لَهُ.

- نَوَّعَ المُتَنَبّي في حَديثِهِ عَنِ الفراقِ، وأَسْهَبَ في إسْقاطِ المَعاني عَلَيْهِ وابْتِكارِها، ما يَدُلُّ عَلى تَعَرُّضِهِ لِلفِراقِ مَرّاتٍ كَثيرَةً، حَتّى اكْتَوى بِلَوْعَتِهِ، وقاسى أَلَمَهُ، فذَهَبَ يَنْغَمِسُ في مُسْتَوَياتِ المُعاناةِ ابْتِداءً بِالحُزْنِ، فالبُكاءِ، فضيقِ العَيْشِ، فكانَ المَوتُ وَجْهًا مِنْ أَوْجُهِهِ، ونَتيجَةً لَهُ.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

القرآن الكريم

- الإبشيهي، شهاب الدين أحمد: **المستطرف في كل فن مستظرف**، ط2، مكتبة محمود توفيق، مصر، 1935.
- الأنباري، أبو البركات كمال الدين: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، ط3، تح: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، 1985.
- الأندلسي، أحمد بن محمد بن عبد ربه: **العقد الفريد**، ط1، تح: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983.
- الأنصاري، حسان بن ثابت: **الديوان**، ط2، تح: عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.
- البرقوقي، عبد الرحمن: **شرح ديوان المتنبي**، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، ط4، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997.
- التبريزي، الخطيب: **شرح ديوان عنترة**، ط1، تح: نجيب طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1992.
- التوحيدي، أبو حيان: **المقابسات**، ط1، تح: حسن السندوبي، 1929.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **الحيوان**، ط2، تح: محمد هارون، 1965.

- الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن: **أسرار البلاغة في علم البيان**، ط1، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

- الحلبي، صفي الدين أبو الفتح عيسى بن البحتري: **أنس المسجون وراحة المحزون**، ط1، تح: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، 1997.

- الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: **عيون الأخبار**، ط2، تح: لجنة من دار الكتب المصرية، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.

- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس: **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين، بيروت، 2002.

- ابن زهير، كعب: **الديوان**، ط1، تح: درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت، 2008.

- ابن أبي سلمى، زهير: **الديوان**، ط1، تح: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988.

- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين: **المحاضرات والمحاورات**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1424هـ.

- الشريف المرتضي، علي بن حسين الموسوي: **الشهاب في الشيب والشباب**، ط1، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، 1302هـ.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **الوافي بالوفيات**، د.ط، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 2000.

- ابن أبي طالب، علي: **الديوان**، د.ط، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار بن زيدون، بيروت، د.ت.

- ابن العبد، طرفة: **الديوان**، ط3، تح: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002.

- أبو العتاهية، أبو إسحق إسماعيل بن القاسم: **الديوان**، د.ط، دار صادر، بيروت، 1964.

- علي، أبو إسحق برهان الدين محمد: **غرر الخصائص الواضحة، وعرر النقائض الفاضحة**، ط1، تح: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2008.

- ابن منظور، جمال الدين: **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت، 1414هـ.

المراجع

- إبراهيم، زكريا: **مشكلة الحياة**، د.ط، دار مصر للطباعة، د.ت.

- إبراهيم، محمد عبد الفتاح: **المتنبي**، د.ط، مطبعة عبد الحليم حسني، 1354هـ.

- باقر، طه: **ملحمة جلجامش. أوديسة العراق الخالدة**، د.ط، وزارة الإعلام، بغداد، 1975.

- البغدادي، أحمد سعيد: **أمثال المتنبي وحياته بين الألم والأمل وقطع مختارة من شعر المتنبي**، ط2، مطبعة حجازي، القاهرة، 1934.

- جياووك، مصطفى عبد اللطيف: **الحياة والموت في الشعر الجاهلي**، د.ط، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977.

- الحامد، عبد الله بن حامد: **شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين**، د.ط، الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية، الرياض، 1971.

- الحامد، عبد الله عواد: **الشعر الإسلامي في صدر الإسلام**، ط1، الرياض، 1980.

- الحديدي، سيد: **المتنبي العبقري الطريد**، د.ط، دار شعاع للنشر والعلوم، حلب، 2006.

- حسين، طه: **مع المتنبي**، ط13، دار المعارف، د.ت.

- حلمي، محمد كمال: **أبو الطيب المتنبي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه**، د.ط، إدارة مكتبة ومطبعة الشباب،1921.

- الحوراني، محمد عيسى: **الدهر في شعر ابن الرومي**، د.ط، دروب للنشر والتوزيع، 2006.

- الخراشي، سليمان بن صالح: **نظرات شرعية في ديوان المتنبي**، ط1، دار علوم السنة للنشر والتوزيع، الرياض، 2001.

- الخياط، جلال: **الشعر والزمن**، د.ط، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975.

- الخياط، جلال: **المثال والتحول: آراء ودراسات في شعر المتنبي وحياته**، د.ط، وزارة الإعلام، بغداد، 1977.

- الدسوقي، عبد العزيز: **في عالم المتنبي**، ط2، دار الشروق، بيروت، 1988.

- الديك، إحسان: **الأسطورة في فكر الجاهلي وأدبه**، ط1، مجمع القاسمي للغة العربية، 2016.

- الديك، إحسان: **صدى الأسطورة والآخر في الشعر الجاهلي**، ط1، مجمع القاسمي للغة العربية، 2013.

- الزير، محمد بن حسن: **الحياة والموت في الشعر الأموي**، ط1، دار أمية للنشر والتوزيع، الرياض، 1989.

- الزيني، محمد عبد الرحيم: **حقيقة الموت بين الفلسفة والدين**، ط1، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، 2011.

- سلامة، يسرى محمد: **الحكمة في شعر المتنبي**، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2009.

- السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة**، ط2، دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق، 2002.

- شرف الدين، خليل: **المتنبي أمة في رجل**، د.ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت، د.ت.

- ابن شريفة، محمد: **أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة**، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986.

- شعيب، محمد عبد الرحمن: **المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث**، د.ط، دار المعارف، القاهرة، 1964.

- شلبي، سعد إسماعيل: **مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمتنبي**، د.ط، مكتبة غريب، القاهرة، د.ت.

- الشمري، ثائر سمير حسن: **التشخيص في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري – دراسة نقدية**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2012.

- الشمري: ثائر سمير حسن: **الشيب في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2014.

- الشملان، نورة صالح: **شخصية المتنبي في آثار الدارسين**، ط1، دار الصافي للثقافة والنشر، السعودية، 1990.

- عباس، إحسان: **شعر الخوارج**، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1974.

- عطوان، حسين: **مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي**، د.ط، دار المعارف، مصر، 1970.

- العقاد، عباس محمود: **ابن الرومي حياته من شعره**، د.ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والنشر، القاهرة، 2012.

- العقاد، عباس محمود، وآخرون: **أبو الطيب المتنبي حياته وشعره**، د.ط، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، 1982.
- العقاد، عباس محمود: **مطالعات في الكتب والحياة**، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1983.
- العوادي، عدنان حسين: **الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي**، د.ط، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1979.
- لويروتون، دافيد: **انتروبولوجيا الجسد والحداثة**، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1977.
- محجوب، فاطمة: **قضية الزمن في الشعر العربي، الشباب والمشيب**، د.ط، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- مطلك، حيدر لازم: **الزمان والمكان في شعر أبي الطيب المتنبي**، ط1، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2010.
- الميراني، نوزاد شكر: **صورة العدو في شعر المتنبي : دراسة**، د.ط، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2010.
- المكتب العالمي للبحوث: **الحب عند العرب**، د.ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- نافع، عبد الفتاح صالح: **لغة الحب في شعر المتنبي**، ط1، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، 1983.
- نمر، حنا: **دراسات في الأدب والفن**، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1982.
- ابن نوار، بهاء: **تجليات الموت في شعر المتنبي**، ط1، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية، دمشق، 2011.

- هلال، عبد الناصر: **تراجيديا الموت في الشعر العربي المعاصر**، ط1، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2005.

الرسائل الجامعة

- الحويطات، مفلح ضبعان: **تجليات الصّراع في شعر المتنبّي: دراسة في الرؤية والتشكيل**، (رسالة دكتوراه غير منشورة)، جامعة مؤتة، الأردن، 2008.

- الشوشي، أروى أحمد عبد الرحمن: **شعر الشيب والشباب في العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة مؤتة، الأردن، 1992.

- العرفج، أحمد عبد الرحمن حسين: **شعر الشكوى عند المتنبّي**، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة أم القرى، السعودية، 1420هـ.

الدوريات

- الشمري، ثائر سمير حسن: ***خطاب الموت في شعر المتنبي بين التقليد وإمارة الغايات العليا***، **مجلة جامعة بابل** (العلوم الإنسانية)، العراق، مج 19، العدد (3)، 2011.

- عبد الخالق، أحمد محمد: ***قلق الموت***، **سلسلة عالم المعرفة**، الكويت، العدد (111)، 1987.

- علام، محمد مهدي: ***فلسفة المتنبي من شعره***، **صحيفة دار العلوم**، العدد(1)، 1355هـ.

An- Najah National University

Faculty of Graduates Studies

The duality of life and death in Abu At-Tayyeb Al- Mutannabi's poetry

By
Gharib Mohammad Ahmad Issa

Supervised by
Dr. Abdul Khaliq Issa

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arabic Language, Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus, Palestine.
2017

The duality of life and death in Abu At-Tayyeb Al- Mutannabi's poetry

By
Gharib Mohammad Ahmad Issa
Supervision By
Dr. Abdul KhaliqIssa

Abstract

This study aims to figure out and illustrate the duality of life and death in Abu At-Tayyeb Al -Mutannabi'spoetry through collecting and then analyzing his poems. In fact, Al-Mutannabi had extensively addressed, fathomed and philosophized this duality in his poetry to be harmonious with his logic and his ambitious and rebellious self.

This study consists of an introduction, a preface, two chapters and a conclusion.

In the introduction, the researcher discusses the topic, methodology, contents, significance , references and sources of the study. However, in the preface, the researcher briefly focuses on the issue of life and death up to the Abbasid period highlighting the prevalent mythological and traditional beliefs in the earlier times.

In the first chapter, the concepts of life and death in Al -Mutannabi's poetry are extensively illustrated together with his point of view of certain topics closely associated with life and death.

In the second chapter, the researcher addresses the features of death in Al -Mutannabi's poetry, especially, when the poet talks about age, sickness, grey hair and separation, which had psychologically affected the poet.

In the conclusion, the researcher concludes the main findings of the study.